

أخي محمد

الَّذي احتمل عَنِّي أوزارا الحياة

كتبه

أبو أوس إبراهيم الشمسان

الطَّبعةُ الأُولَى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م


أخي محمد
الَّذِي احْتَمَلَ عَنِّي أَوْزَارَ الحَيَاة



الَّذِي احْتَمَلَ عَنِّي أَوْزَارَ الحَيَاة

كَتَبَهُ

أَبُو أَوْس إِبْرَاهِيم الشَّمْسَان

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

ⓒإبراهيم بن سليمان بن رشيد الشمسان ، ١٤٤٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشمسان ، إبراهيم بن سليمان بن رشيد
أخي محمد الذي احتمل عني أوزار الحياة. / إبراهيم بن سليمان
بن رشيد الشمسان .- الرياض ، ١٤٤٤هـ

١٨٩ ص ؛ ..سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٤-٤٤٧٠-٠

١- الخواطر ٢- المقالات العربية أ.العنوان

ديوي ٠٨١ ١٤٤٤/٤٩١٦

رقم الإيداع: ١٤٤٤/٤٩١٦
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٤-٤٤٧٠-٠

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ-٢٠٢٣م

صممت الغلاف: بدور بنت إبراهيم الشمسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

إهداء

إلى أخي محمد

من احتمل عني أوزار حياتي فكفاني الجهد

حياتي غرسك تسقيه بعطف وبحب جـمّ

مهما قلت فلن أبلغ حدًّا يرضيني في المـدح

دمت بخير ورضًا وبحفظ المولى، اللهــــم

المحتويات

مقدمة

ليس هذا الكتاب سيرة؛ ولكنه إطافة بلحظات مميزة في ذهني، وهو أيضًا بيان لمدى عناية أخي بي ورعايته الفائقة التي هي في تقديري أكبر من رعايته أبناءه، عشنا في بيوت القصيم المختلفة أسرة كبيرة ثمّ انتقل أخي إلى الرياض لتحسين وضعه الوظيفي كما انتقل كثير من شباب بلدنا، ثم التحقت به لأواصل دراستي الثانوية، وفي الرياض عشت في بيته بين أولاده وفي رعايته هو وزوجته الكريمة الحنون رحمها الله رحمة واسعة، لم تدخر وسعًا لخدمة أفراد العائلة دون كلل أو ملل، لم أسمع لها قط صوتًا يرتفع ولا تذمرًا من شيء أو توقفًا في أمر، ولم أسمعها قط تتكلم عن أحد بسوء أو تشتكي من أحد، كانت تقابل ما يحدث من أخطائي بالنصيحة الرفيقة، لا تعدّني سوى واحد من أولادها الذين عشت معهم أيّامًا جميلة، نتشارك الطعام، ونجلس لحلّ الواجبات المدرسية، وأسعد إن

استطعت أن أساعد أحدًا منهم، وسعدنا في اجتماعنا لمشاهدة التلفاز كل ليلة. تحاول راحتي ما استطاعت، أذكر أن عيد الأضحى أحلنا وكان أخي مسافرًا في مهمة، وكانت قد استأذنته في ذبح أضحية، أخذنا الخروف إلى السطح ويممناه تجاه القبلة، بعد أن مسحت عليه، أمسكت به جيدًا، أما أنا فسميت عليه وكبرت ونحرته حتى أنهرت دمه، ثم إني هممت أن أشرع في سلخه ولكنها منعتني من ذلك منعًا، وأصرت أن تتولى ذلك هي نفسها، فنزلت استجابة لطلبها.

أكتب هذا الكتاب وأنا على يقين أنّه إن ذكر شيئًا فهو نقطة في بحر فضائله التي لا أملك لها حصرًا، ومهما تكن الكتابة تظل قاصرة عن تصوير المشاعر والوفاء بما تكنه الصدور، وهي عاجزة عن وصف لمحات من الحياة تستعصي على الوصف؛ لأنها إن لم تُعش، تشاهد وتسمع؛ فإنه لا سبيل إلى إدراكها. وإني لأرجو أن يجد قارئ هذا الكتاب ما يدخل السرور إلى نفسه وهو يطلع على جوانب من مواقف إنسانية لعلها أو ما شاكلها مرّ به أو علمه بعض العلم، ولعله يحس شيئًا من

إحساسي الذي به كتبت، وله دونت، وإليه صبوت.

وإني لأرجو أن يجد هذا الكتاب قبولًا عند أخي الذي عودني أن يقبل مني كل شيء مهما قلّ شأنه، وأن يسامحني إن كنت قصّرت في شيء، وأن يغفر ما بدر مني من أخطاء وزلّات.

والله ولي التوفيق.

أبوأوس

الحْجَر

أول وعيي بالحياة أرى أخي رشيد رحمه الله يكمل بناء سور على الحُجَر، حُجَر أسرتنا في المربع، ولم تكن الحجر قبل ذلك مسورة بشيء، بل مفتوحة على الفضاء الشرقي الذي يفصلها عن غابة النخيل المغروسة في (الجوّ)[١] وهو ضفة شعيب الدالوبي العظيم، قال أخي محمد "قال أبو رِشِيد [أحد سكان المربّع]: يا أهل المربع انجوا بأغنامكم ومتاعكم من الشعيب، فقد حلمت البارحة بدابّ [ثعبان] حمراء رأسها أبيض، وما أظنها إلا الدالوبي مقبلًا. سخر القوم منه، وقالوا: ما صدقت علومك تصدق حلومك. ولكن ما جاء آخر النهار حتى رأوا الدالوبي بين ظهرانيهم يحتمل زبده عاليًا جارفًا ما أمامه، ولم يتمالك القوم سوى النجاة بأنفسهم، أما الأغنام والمتاع فقد جرفها الدالوبي شمالًا، فهلك ما هلك ونجا ما نجا".

---

(١) جاء في معجم العين للخليل بن احمد "والجوُّ: كل ما اطمأن من الأرض".

قبل بناء الحجر كان أهل المربع يقطنون في مكانين أحدهما في أسفل ضفة الدالوبي، ويسمى القصر الَاسفل أي الأسفل، وأما المكان الآخر ففي أعلى ضفة الدالوبي ويسمى القصر العلوّ أي الأعلى، وهو محاط بسور، وعن شماله المسجد ودار عبد الرحمن بن عبدالله الشمسان الذي ورث إمارة المربع عن أبيه، وهو رجل قويّ نشيط ذا سخرية وطرائف، وهو كما حدثني أخي محمد من علّمه كيف يحتطب؛ إذ اصطحبه للخلاء وهو فتى يافع، ووصف كيف جمعوا الحطب من جذوع السمر وغيرها، وكيف كوموها وشدّوها في هيأة نقْلة، وكيف أراه رفع نقلة الحطب من جانب وارتكازها على المقلب [شومة طويلة] ليدخل الحمار تحتها ثم يرفع جانبها لتستوي على ظهر الحمار، وأراه كيف يستعمل المقلب بعد ذلك لحفظ توازن النقلة فلا تسقط أثناء مشي الحمار بها، كانت تجربة شاقة، ولكن الحياة في تلك الأيام سلسلة من المتاعب والمشاقّ والأهوال. وأما أنا فأذكر أني زرت أمير المربع غير مرة في بيته فرأيته يضع في فمه عظمًا ويشعل فيه النار ثم يمص طرفه فيملأ

فمه بدخان يطلقه بعد ذلك، أنقل لوالدتي هذا المشهد فلا تزيد على قولها: الله يهديه.

ومن طرائف عبدالرحمن التي رواها أخي محمد أنه أراد أن يعابث شابًّا حديث الزواج، كان يقضي طائفة من الليل في بيت أهل عروسه ثم يعود إلى بيت أهله، وفي ليلة قمراء كمن له بين شجيرات على طريقه حتى إذا حاذاه انبعث نحوه وراح يتراقص أمامه ويضرب فخذيه ويصوت أصواتًا عجيبة أذهلت الشاب عن نفسه وامتلأ رعبًا فأطلق ساقيه للريح وهو يصيح: دنّي دنّي دنّي، أي جني، كان يلثغ بالجيم، قال أخي: رقد الشاب ما يقارب شهرًا صريح الفراش حتى فُزّع عنه[١]، وعاد إلى سابق عهده، وأما صاحبنا فكتم أمر الحادثة فلم يخبر بها أحدًا حتى تيقن من عودة الشاب إلى رشده.

وفي القصر العلو هناك البئر الشهيرة (فْريجة)، رأيت ذلك العصر امرأة خرجت من الحجر تولول لما سمعت بسقوط ابنها في فريجة، جرى أحد الشباب نحو البئر

(١) أي زال الفزع عنه.

ورأيناه بعد قليل يعكس ضوء الشمس بسطح جيلون (صفيحة معدنية) فعرفنا أنه أنقذ الولد.

إلى جوار بئر فريجة كان المسجد الذي يؤم الناس فيه محمد بن عمر بن محمد بن عثمان الشمسان، وأما المؤذن فهو عزيّز الباهلي، رجل رويت لنا عنه طرائف كثيرة، من ذلك أنّ ابنه اشترى له ساعة خرّاشة (منبهة) وعلّمه أسماء الأرقام كلها، وأن العقرب القصير إذا وصل هنا تكون الساعة ستّا وبعدها تكون سبعًا، سألوه مرّة كم الساعة؟ فقال: الساعة سبع إلا نصف، قالوا يعني ستّ ونصف، قال: لا، سبع إلا نصف. ومن طرائفه أنه أعدّ قهوة لضيوف ينتظرهم، فأراد بعض الصبية أن ينالوا منها، فقال لهم اشربوا من رقاب الدلال، أي من أعلاها، كأنه يحذرهم من إفسادها. وحكى عنه والدي حكايتين أثناء الحج، وكان والدي ذهب بجدي (رْشيد) للحج، وهو رجل هرم، فكان يُحمل على الجمل، أما والدي فكان يسير سيرًا، قال والدي: تاه جدك رشيد ومعه عزيّز فدخلا المحمل المصري، فإذا الموائد المعدة فدعوهما ووضعوا أمامهما طعامًا، وكان الجوع

قد أخذ منهما كل مأخذ، قال عزيّز: لا تاكل يا رشيد يسحرونك، فرد عليه: أنا شايب فاني، أبي آكل أما أنت فشاب قدامك الحياة فلا تاكل، ولكنْ عزيّز لما سمع قوله أقبل على الطعام إقبالًا. وروى عنه والدي أنه كان قصيرًا نحيلًا، وأنهم لما كانوا في رمي جمرة العقبة أحس الضغط والعنت فرأى مصريًّا ضخم الجثة، فقفز على ظهره وتعلق برقبته وصاح به مستنجدًا: تكفى يا فندي، فحمله المصري وشق به الزحام حتى أورده على الحوض ثم عاد به لينزله في مأمنه.

في الليالي المقمرة يحلو للناس الخروج والاستلقاء تحت النجوم، أذكر أن أحد الشباب يقال له ناصر الدهيسان راح يختبر معرفتي بما نراه فوقنا، كانت المجرة وكان البدر فأشبهتا في مخيلتي هذا الشعيب بما فيه من مرو وحصيات متناثرة، فلما قال لي ما هذه الأشياء فوقنا فقلت بخبث حصى، وأشار إلى القمر فقلت هذه حصاة كبيرة، فضج بالضحك يحسب أني أعني ما أقول.

كانت النساء يتجمعن ليسمعن من إحداهن إلى

سبحانية[١] يتعللن بها حتى إذا كاد يأخذ النوم بمعاقد أجفانهن تفرقن إلى ذويهن.

في الجو من أعلاه إلى أسفله مقاطير[٢] من النخل من غير حدود تفصل الأملاك؛ ولكن الناس يعرفون حقوقهم، فلا يجور أحد على أحد، وفي الصيف ربما أقيمت بين النخيل عشّة تحيط بنخلة كالمخروط، أو صريفة من عسبان النخل بخوصها مستطيلة واسعة ساترة تهيئ للنساء التبسط فيها. ولا أنسى مشهدًا قاسيًا في ذلك اليوم الذي اجتمعت فيه الأسرة مع أختي نورة التي تكاد تموت من الألم والكرب الشديدين، كانت ملقاة لا حول لها ولا قوة ثم يدخل إلى الصريفة أخي عبدالله رحمه الله يقود حمارًا وعليه بدوي، فلما وقف الحمار في وسط الصريفة نزل البدوي وأمر بأن تنهض

---

(١) السبحانية قصة خيالية تحكيها النساء وتبدأ بقول "يقولون هاك الواحد والواحد الله سبحانه المعتلي مكانه". أما قصص الرجال فالغالب أنها حقيقية وتسمى سوالف ومفردها سالفة، ولذلك يقال عن الشخص غير المتأكد من أمره ما عنده سالفة، وربما وصفوا الأخبار غير المؤكدة بأنها سواليف.

(٢) مقاطير جمع مقطير، وهو الصف من النخيل.

الفتاة فعضدت لها اثنتان حتى استقام عودها، وأمرها أن تفتح فمها وأن تشرب سمنًا ففعلت على كره منها، فقد عافت نفسها كل زاد، واضطرها أن تلزم الشخوص مدة كافية أتاحت للسمن أن يأخذ طريقه إلى جوفها، ورأيته بعد ذلك يأمرها أن تستلقي على ظهرها، وأن تكشف عن بطنها، ورأيته يضغط بقوة على أمعائها، وهي تشق الفضاء صراخًا وعويلًا، لم يكن الألم بالذي يطاق فيكتم الصوت معه، كل ذلك جرى أمامي وأنا أتميّز غيظًا من هذا البدوي الغريب، ومن أهلي الذين سمحوا له بالاعتداء عليها بكل هذه القسوة، ولكن جاء وقت علمت أنه كان يعالجها، وأنه أفلح بتفتيت ما تحجر في أمعائها لما نالها من جفاف شديد، وكان أن شاء الله أن تبرأ وتسلم.

ولست أنسى الليالي التي جنّ فيها علينا الظلام، وأمرنا بالرقاد فطلبنا أن نشرب ماءًا، فحُذّرنا بأن من يشربْ فلن تزوره الغُزيّل في الليل وتسقيه من لبنها الحلو، فكنا نطمع باللبن ونكف عن الماء، ولكن الصباح يصبح ولا يذكر أحدنا أن الغزيل زارته ولا يذكر أنها

سقته، ولا أذكر أنّا عدنا بالسؤال عن ذلك بل تشغلنا ألوان من اللهو واللعب مع أقراننا.

في الجو عرفت جدتي لأمي تمشي على رمال الجو معتمدة على عصاها، جاءت مع خالي سليمان وأولاده الذين كنت أقضي سحابة نهاري معهم في لهو ولعب، كان أقربهم إلى نفسي عبدالله، رحمه الله، فقد أظهر لي محبة واحتفاء وكان يتحمل مناكفاتي له بكل صبر، من ذلك أني كنت أرضخ علبة من علب الصلصة وأتحداه أن يقيمها، ولكنه يدهشني حين يعود بها مستقيمة جوانبها، ولست أنسى يومًا كنا متحلقين حول مخراف[١] مُلئ بتمر الشقراء منقطه ومنصفه وزقيطه[٢]، تناول عبد الله واحدة فشرِق بها فكحّ، وكان

(١) المخراف زبيل من الخوص ذو عروة طويلة يعلقها من يتسلق النخلة ليخرف أي يقطف منها البلح المستوي نصفه أو كله.

(٢) حين يبدأ البلح بالإرطاب يكون في نقط متعددة من البلحة في أسفلها وتسمى منقط، ثم يبدأ الإرطاب يزداد صعدًا فإذا بلغ نصف البلحة قيل لها منصّف، فإذا اكتمل قيل لها زقيطة، وربما بدأ الإرطاب نادرًا من أعلى البلحة مما يوالي القمع فيسمى محلقم.

باتجاه المخراف، فإذا بجدتنا تطحله[1] طحلة قوية وتنهره عن مثل هذا السلوك المخالف لآداب الأكل، وأنّ عليه أن يصدّ إن غالبته كحة أو شرقة، كان درسًا لنا جميعًا، لم يبك عبدالله ولم يغضب؛ لأنه أيقن أنه أخطأ وأن هذا درس لا عقاب.

إذا انقضى المقيظ وصرم النخل وأودعت ثمرته في القصور أو في الحجر بدأت الحياة تدب في الحجر ففيها النوم والمقيل، كان بيتنا يتألف من ثلاث حجرات اثنتان باباهما إلى الشرق والثالثة بابها إلى الشمال، ويحيط بهذه الحجرات الثلاث حوش له باب غربي، ويبدو أن الغرفة الصغيرة الموالية للمدخل هي غرفة استقبال الضيوف، ولم أرَ يومًا ضيوفًا في هذه الغرفة؛ ولكني رأيت امرأة ممددة على فراشها مغطاة لا أرى وجهها، ولكني أعلم أنها أختي (هيا) رحمها الله التي لم أحفظ صورة وجهها ولم يبق من ذكراها سوى هذا المنظر

---

(١) الطحل مأخوذ من الطحال، وهو ضرب الظهر بكف مبسوطة، فإن كانت مقبوضة فهذا الدحج أو العتن.

المؤلم، أرى الإمام العمر جالسًا إلى جوار رأسها يتلو القرآن ويعزم عليها ما شاء الله له أن يعزم، يود من كل قلبه أن يأخذ الله بيد زوجة ابنه عبدالرحمن، ولكن الله شاء أن يتوفاها، لا أعلم متى توفيت ولم أرها يوم حملت، ولكني رأيت في زاوية الحوش رداءًا ذا خطوط متقاطعة داكنة جعل مظلة واقية من الشمس، عرفت أنها غسلت تحت هذا الرداء وأنها نقلت فقبرت، حين طرق الباب بعد المغرب فتحته فإذا هو عبدالرحمن زوجها كاسف البال حزين القلب يحمل بيده تريگا[١]، وأخبرني أن أبلغ أمي أنّ الأمر انتهى.

لم أر وجه أختي (هيا) رحمها الله؛ ولكن أخي محمد هو الذي حدثني عنها، وعن جمالها ورشاقتها وطيبة قلبها، وكان متعلقًا بها، فقد كانت الأخت الحبيبة وكانت الصديقة التي لا ينساها.

قال لي إن أقرب الناس صورة منها ابنتي ديمة تشبهها في لونها وقسماتها، ولعل ذلك ما جعله يكتب

(١) مصباح يدويّ ببطارية، معرب لفظه من اليكتريك electric أي كهربائي.

أمام رقم هاتف ابنتي ديمة اسم (الغالية).

وأما الحجرتان ذواتا البابين الشرقيين فإحداهما غرفة للنوم، وأذكر أنني أنا وأمي وأخواتي ننام فيها، وكان في ناحية منها أكياس قمح وأكياس تمر، وأذكر كيسًا ضخمًا من الترنج (الأترج)، وكان من أكثر المتع ما تصنعه لنا والدتنا بهذا الأترج، ففي كل يوم تعصر لنا أترجة في غرشة (غضارة) ملئت بالماء المحلى بالسكر، كان شرابًا لذيذًا منعشًا، وكانت القلة تحلي كل شيء، وأما التمر فإنه متى قارب أن يجف لا بدّ من كنزه في كيس من القماش، وذلك بعد تنظيف التمر بالماء وترطيبه ثم ضغطه في الكيس لمنع دخول الهواء فيه، فيسلم من السوس والسراوة[1]، وأذكر في عصر ذلك اليوم الذي هبّ فيها الأهل لإنجاز المهمة، وكنت شاهدًا مراقبًا، كيف ملئ الكيس بالتمر إلى منتصفه، ثم كيف قفزت فيه ابنة خالتي هيا السعيدان رحمها الله، نعم رأيتها غمست قدميها الحافيتين في طشت ماء؛ ولكن ذلك لم

(١) السراوة جمع سرو، وهي الدود الذي يقع في النبات.

يُزل ما في عقبيها من سواد، كان اختيارها لميلها إلى البدانة، فالقوة والثقل مطلبان مهمان لأداء هذا، فلما وطِئت التمر ودكّته حتى تداخلت أجزاؤه ونزل سطحه شيئًا إلى قعر الكيس أضيفت كميات أخرى لتعلو عليها وتدكّها دكًّا مبينًا، وما زالت تفعل هذا حتى كاد يفيض الكيس وآذن بالختام، ونزلت بعقبين أبيضين أملسين، فرح القوم بما أنجزوا، وكانوا كلما أكلوا دعوني للأكل فأرفض، فإذا سألوني قلت لهم "ما أبي آكل تمر معبرته سعدانه". وفي هذه الغرفة شهدت ولادة أمي آخر أطفالها أختي موضي، رأيت والدتي تمسك بحبل ضخم تدلى من السقف وإلى جانبيها امرأتان تشجعانها أختي هيا وامرأة خالي محمد رحمهم الله جميعًا، ولا أعرف بعد ذلك ما حصل، ولكني أرى أن امرأة خالي ظلت تلازم بيتنا تصنع لأمي طعامًا خاصًّا في الموقد، وهو ركن صغير في الجانب الجنوبي الشرقي من الحوش، أذكر أن أمام هذا الموقد في الحوش خزان ملقى على الأرض، لعله كان خزان بنزين، وكان في هذا الخزان غطاء مغلق بمسامير لولبية، وكان من هواياتي المتكررة أن أجلس

أمام هذا الغطاء بسكين أفتح بها بعناية هذه المسامير وأجذبه ليخرج قضيب في نهايته علبة نحاسية مقفلة منبعجة، لا أدري ما هي، ولكني عرفت بعد ذلك بسنوات كثيرة أنها عوامة، ثم أعيد ذلك إلى مكانه وأحكم ربط المسامير لأفكها في وقت آخر.

في الحجرة الثالثة كان اجتماع الأسرة أثناء النهار وأطرافًا من الليل، وفيها تعدّ القهوة والشاي، ولا تغيب عن نظري آلتان جديدتان أحضرهما أخي رشيد رحمه الله، إحداهما آلة عجيبة عرفت بعد أنها طاحونة القهوة، ذات فم فاغر أعلاها، تكب فيه القهوة المحموسة، ولها يد متصلة بمحور في بطن الطاحونة فإذا أدير المحور بهذه اليد نزل البن مطحونًا يتلقاه صحن دائري، فإذا انتهى ذلك وجعل البن في الدلة كُبّ هذا الصحن على فم الطاحونة وغطيت بخرقة حمراء.

أما الآلة الثانية فهي (التريك)[1] وهو على هيأة

(١) شبه بالتريك اليدوي لشدة نوره، ولا علاقة له بالكهرباء.

السراج (الفنر)[١] ولكنه أضخم منه، له خزان يملأ بالقاز (الكيروسين) وينفذ فيه مكبس هواء يضغط فيه الهواء الذي يدفع القاز في أنبوبة إلى أعلى الآلة لينفذ من ثقب ضيق ليتحول السائل بالحرارة إلى غاز مشعل داخل فتيلة، وهي كيس من نسيج خاص مثقب يتمدد بعد احتراقه وخروج الغاز المشتعل إلى باطنه فيصير أسطوانة يشع منها ضوء ساطع يجعل الليل نهارًا، ولكن هذه الفتيلة ضعيفة الجدران فهي نسيج احترق وصار رمادًا متماسكًا بعض التماسك، وعلى من ينقل التريك أن يكون حذرًا في مِشيته حتى لا تنكسر الفتيلة وللتريك أسطوانة زجاجية تنفذ النور وتحمي الفتيلة من الهواء أو هجمات الفراش أو الحشرات. وأحسب هذه الغرفة مكان نوم الشباب الكبار.

في الحوش كان الجلوس أثناء النهار حين يكون

(١)أي فانوس، وهو جهاز من خزان وقود وهو (القاز Kerosene) له عمودان يحملان قبة ذات خلال تتيح خروج الهواء الساخن من الزجاجة التي بين القبة والخزان وهي زجاجة تضيء وسطها شعلة نار فتيلة مغروسة في الخزان، والفتيلة تطبق عليها أسنان تحركها صعودًا وهبوطًا بمفتاح يتحكم به من يشاء، وتزداد الشعلة بارتفاع الفتيلة وتضعف بانخفاض الفتيلة.

الظلال والنسمات العليلة، أذكر أني رأيت أختي مريم أول ما بدأت القعود، وفي الحوش أتذكر صديقًا من أقاربنا هو محمد بن عمر حفيد إمام المسجد كان يزورنا في بيتنا وكنا نصنع بيتًا من الطين، أما شبابيك هذه البيت فكانت أعلامًا معدنية زاهية مثبتة إلى دبابيس نجعلها محورًا تحرك باب النافذة، وكانت الأعلام تدغم في ألواح اللبان التي تهدى إلينا يهديها القادمون من سفر أو حجّ، وبعد سنوات كانت هذه الألواح تُشفع بصور الفنانات والفنانين، أذكر أننا في غير صباح كنا نتناول الحليب في بيت والده عمر، وفي يوم ألحّ الكبار أن نصحب معنا أحد أبناء الجيران، ولم يكن محمد يحبه ولا يريد صحبته فقد كان أصغر منا، ولكنه لمّا كان غير قادر على عصيان أوامر الكبار تفنّن في استفزازه، كنت أراه وهو الذي يزاول صبّ الحليب يغافله بأن يدوف ما في فنجان الولد من حليب بالرماد فترى الصبي لا يكاد يشرب منه رشفة حتى يمجّها وييأس منا فينصرف.

كان الفضاء بين الحجر وفريجة والجو واسعًا منبسطًا تكسوه طبقة رملية، وكان مسرحًا لألوان من

لهو الصغار والكبار، وأذكر أني وأحد أبناء الحيّ نركب نبعًا[١]، ونضع عليه علبة ملأناها إلى منتصفها جعولة[٢]، فما تزال هذه الجعولة تكافح للرقي والخروج من العلبة ولكن سطح العلبة الأملس يحول دون ذلك فنسمع لحركة كفاحها ضجة، نعدّ ذلك الراديو الذي يكون في السيارة.

لم أر أخي محمدًا في المربّع، ولكني أعلم بوجوده فأخباره تَردّد تترى، وكانت هداياه تصل إلي، إذ أعطيت ذات مرة ساعة أطفال، قيل لي إنها من أخي محمد أتى بها من الحجاز، كانت الساعة غريبة فليست على صورة ساعات الكبار الحقيقية، كان لها مربعان على جانبي مينائها في كل مربع صورة، لم تجد هذه الساعة قبولًا في نفسي؛ فهي ليست على صورة الساعات الحقيقية، وانتهى أمرها أني رضختها بين حجرين متحملًا بعد ذلك مرارة المعاتبة من أهلي. ولكن جاءتني منه بعد ذلك

---

(١) النبع ساق النخلة المقطوع، وكان يشرح وتصنع منه الأبواب.

(٢) الجعولة جمع جَعَل، وفي الفصيحة جُعَل وجمعه جِعلان، وهو من الخنافس عريض مفلطح يدهدي الخروء أي يدحرجها.

ساعة على هيأة ساعات الكبار، فلبستها فرحًا بها حريصًا على أن تُرى وهي تزين معصمي الأيسر، رآها سليمان السعيدان أخو إبراهيم السعيدان زوج خالتي، فأمسك بيدي يتأملها، وقال لي: كم الساعة؟ وكان في سمعي منذ ذلك الوقت وقر، فلم أتبين سؤاله وما خطر بالبال أن يُسأل مثلُ هذا السؤال السهل، فأجبته: بريال ونصف، كأني سمعته يقول: بكم الساعة؟ ولم يصدق الشيخ الكبير أنه فاز بطرفة ففضحني بين كلّ مار، فما زال يردد: قلت له كم الساعة، قال بريال ونصف، ثم يتبع ذلك بقهقهة مجلجلة، لقد أغضبني ذلك منه، ولم تنجح محاولاتي في تفسير إجابتي.

القهوة

في مرحلة لاحقة وجدتني في نبعة، وهي ضاحية لا تبعد عن المذنب بأكثر من خمسة أميال، كان باب بيتنا في نبعة ينفتح على الغرب كحجر المربع، وكانت جعلت أمام هذا الباب صريفة[1] تستره إن انفتح وتدرأ لفح شمس الظهيرة وما بعدها، تدخل من الباب فترى على اليمين بابًا يؤدي إلى فناء مسور بصريفة، فيه ربطت بقرة وأغنام يسيرة وحمارة هي وسيلة المواصلات في ذلك الزمان، ويمتد دهليز البيت حتى فناء البيت الذي تقع عن يمينة غرفة نوم جماعية للأسرة، وأما عن شماله فكانت القهوة، وأما في عمق الفناء المسقوف فمكان أعد لشؤون البيت من طبخ وخضّ[2] لبن، وتجد في سقفه نبرًا[3] يتيح للدخان أن يجد سبيله إلى السطح،

---

(١) الصريفة سياج من سعف النخل.

(٢) الخض في لغة نجد المحكية المخض. تحريك قربة الحليب (الصميل) دفعًا وجذبًا حتى ينفصل الزبد عن السائل فيصير لبنًا.

(٣) النبر ثقب دائري في السقف يتيح خروج الدخان، وقد يكون الثقب

ويُغطى النبر هذا بفرش من الصخر، يرتفع على ثلاث أثافٍ[١] من الطين مبنية بناءًا، ومن شأن هذا الغطاء أن يدرأ نزول المطر إلى الفناء، وأما الصعود إلى السطح فسبيله درج على اليسار من الفناء، وفي السطح روشن قسمت أرضه إلى مربعات توضع فيها أرزاق أهل البيت من حنطة وبصل وقرع وغيرها، وربما رأيت حبالًا نشر عليها من قديد اللحم المملح ما تيسر يسمى القفر[٢]، وفي السطح بيت صغير معدّ للدجاج، ولكني لم أر يومًا دجاجًا في هذا البيت، كان يحلو لي أن أحشر نفسي في ذلك البييت، لا أستطيع دخوله من الأمام ولذلك أدخله مستدبرًا، ولكني لا ألبث كثيرًا، وفي ذلك السطح ربما تناولنا عشاءنا قبيل غروب الشمس.

أما القهوة فهي غرفة استقبال الضيوف وهي مكان

مستطيلًا وله غطاء متحرك يرفع ويغلق بحبل ينسدل إلى أسفل الحجرة.

(١) جمع أثفية وهي صخرة مخروطية، وكانت قدور الطبخ ترفع على ثلاث أثاف وهي تسود بدخان النار وأما ما يرتفع عليه غطاء النبر فهو بناء يشبه الأثافي ليكون للدخان مخرج.

(٢) القُفْر لحم مقدد مملح جاف.

إعداد القهوة والشاي، فيها وجار تضرم فيه النار وكمر صفت فيه أباريق ودلال.

لم يكن لهذه القهوة نبر يتيح للدخان الخروج إلى السطح بل يتصاعد في فضاء الغرفة حتى يأخذ طريقه من الباب فترى جدران تلك القهوة قد استحالت مع الأيام كخافية الغراب سوادًا، ثم جاء يوم رأيت جدرانها يتغير سوادها، رأيت أخي محمدًا بما جلبه معه من صحف يستر سوادها بالصحف التي يثبتها على جدرانها بمسامير حتى أضحت مشرقة بعد إعتام، ولكن هذه الصحف مع الأيام بدأت تنالها الصفرة ويصوحها الجفاف.

في هذه القهوة كان والدي يعد شايًا مزاجه الدارسين (القرفة) ومحلى بالسكر ليس لطعمه نظير في لذته وإنعاشه، كان يصب لي ما لا يزيد على ربع البيالة[1] ولكني أتذمر من ذلك؛ إذ أراه مخلًا بالرجولة ومساواة الكبار؛ ولكنه يعدني بتكرار الصب متى أنهيتها، كان

---

(١) البيالة فنجان الشاي أخذ اللفظ من التركية عن الفارسية.

يخاف أن أحرق نفسي بهذا السائل الساخن. وطالما امتحنني ونحن نتناول الشاي المدرسَن بسؤاله: أنت أخو من طاع الله وإلا صْبيّ التوحيد؟ ولَمّا كنت لا أرى فرقًا بينهما كنت أجيب مرة بالأولى ومرة بالآخرة.

في هذه القهوة استقبل والدي صاحبه عبدالرحمن بن حنطي، علمت بعد ذلك أنه تاجر من عنيزة، وأن طائفة من أهل القرية يستدينون منه وكان والدي وكيله في القرية وما جاورها من القرى.

وفي هذه القهوة لازم والدي الجلوس فيها بعد أن سقط من ظهر حمارته فوق يده فانكسر ساعده في موضع قريب من رسغه، كان عابرًا من ثليم[١] سور أم شعيب حيث تلتف شجيرات وراء ذلك السور، وفرّ طائر أذعره صوت دخول الحمارة فقمصت[٢] لفرة الطائر فهوى والدي على كفه وساعده، وحمل ذلك اليوم وأجلس في القهوة حتى جيء برجل صنع له جبيرة

---

(١) الثليم أي المثلوم الفتحة المنكسرة من السور.
(٢) جفلت قفزت بسرعة.

لفها على ساعده وكفه، كان مشهدًا مروعًا، عرفت بعد ذلك أن هذا الرجل من المذنب، وهو نجار اسمه عبدالله الموسى، وجاء غير مرة يطمئن على الجبيرة ويشدها، وأما والدتي فقد عنيت بوالدي عناية فائقة، تعينه على مأكله ومشربه، واضطر أن يأكل بالملعقة إذ يمناه مكسورة مجبورة.

معلم بعد مرحلة الابتدائية

في بدء التعليم النظامي لم يكن في المذنب التي يسميها أصحاب الضواحي (الْبْلاد) سوى مدرسة واحدة وكان أبناء الضواحي قبل يمشون على أقدامهم إلى المدرسة يقطعون خمسة أميال أو تزيد، حدثني أخي أبو سليمان محمد الشمسان أطال الله عمره بأمر هذه الرحلة اليومية هو وأخويه وبعض أهل نبعة في الشتاء القارس البرودة.

لم تثن عزيمة هؤلاء صعوبة الأجواء ولا قساوة المكان ولا قلة المؤونة بل أقبلوا على التعلم، وإتقان مهارات اللغة، وحفظ المتون، وهو ما كان مثار إعجاب المدير العام للمعارف الشيخ محمد بن عبدالعزيز المانع والوفد الذين زاروا معه المدرسة وقابلوا الطلاب وامتحنوهم من غير ميعاد مضروب، فألفوهم متقنين لما تعلموا يقرؤون فيحسنون القراءة، ويُسألون بمسائل الفقه والتوحيد فيجيبون بما تقتضيه الإجابة على أحسن وجه وأكمله، وهو أمر أقنع المسؤولين عن

التعليم في ذلك الوقت أنهم على درجة من الكفاية تؤهلهم أن يعلموا الأجيال من بعدهم ما ثقفوه من علم فأحسنوا ثقافته، فلذا كُلف أخي وغيره التعليمَ بعد اختبار السنة السادسة الابتدائية، ثم إنهم بعد ذلك صقلت مواهبهم أو مواهب بعضهم في دورات مكثفة في الصيف نظمت في الطائف، فكان لها من الأثر ما ظهر في أداء عملهم.

السحّارة[1]

جاء أخي محمد من الحجاز، وكان مما جاء به سحّارة صغيرة بنّية اللون ذات قفل لغطائها يحرره زر عن يمين لسان القفل، كانت السحارة مليئة بالصفارات الصغيرة التي ينفخ في مبسمها فتصدر صفيرًا تقطعه كتلة وضعت في خزان الصفارة، أعطيت صفارة من هذه الصفارات فذهبت أملأ الفضاء بالصفير في البيت وخارجه متباهيًا على غيري من أبناء القرية.

أما السحارة نفسها فاختفت، وأتعبت أختي نورة نفسها وهي تبحث عنها لتهب منها لهؤلاء الصغار الذين ما أحضرت الصفافير إلا لهم، وكانت تسألني عن السحارة فأنغض[2] رأسي مدعيًا جهلي بأمرها.

مرّ يوم أو يزيد خبت بعده حماستي وأدركت أن حجبي تلك السحارة غير ذي جدوى فأخرجتها من

---

(١) السحارة شنطة أو حقيبة، منها ما يصنع من الحديد أو الجلد أو ألواح الورق المقوى ومنها خشبي كالصناديق وهي متعددة الأحجام.

(٢) أي أحركه يمنة ويسرة كالمتلفت.

مكمنها، وأخذت الصفارات طريقها إلى أيدي الصغار.

في تلك الأيام لم يكن مع والدي في نبعة سوى أختي نورة وأنا معها، وأما أخي محمد وأخوي رشيد وعبدالله ومعهما الوالدة وبقية أخواتي فقد انتقلوا إلى المذنب فأخي انتقل عمله إلى المدرسة السعودية وأخوي انتظما في معهد إعداد المعلمين، ولكن حين هوى والدي وانكسرت يده جاءت أمّي للعناية به وذهبت أختي نورة لتحل محلها في البيت الآخر.

في هذه الأثناء أدخلت مدرسة نبعة المدرسة الخالدية وكان أول درس سيدرسناه محمد الموسى الذي ملأ الطلابُ رأسي بحكايات قسوته وجبروته، فكانت الفرائص مني ترعد كل رعدة، كنا جلوسًا على تراب الفصل، دخل علينا؛ ولكنه ما لبث أن خرج لَمّا تبين له أنه بحاجة إلى طباشير، وفي هذه الأثناء انتهزت الفرصة ونتقت نفسي من باب المدرسة الشرقيّ هاربًا لا أُلوي على شيء حتى استقر بي الأمر في فناء بيتنا، وكانت والدتي أنهت خض اللبن، فلما رأتني أدركت بذكائها الحاد أني جئت مذعورًا، فلم تعاتب ولم تسأل، بل سكبت لي

من اللبن والحنان ما فَزّع عن رُوعي، وأدخل السَّكينة إلى نفسي، ووجدتني بعد ذلك اليوم أختلف إلى المدرسة؛ ولكني لا أذكر أن الموسى درسني، ومضت السنة الأولى بنجاح، وجاءت السنة الثانية التي أدركت شيئًا منها، ولكن أختي نورة وقد كانت متعلقة بي منذ صغري طالبت بمجيئي إلى المذنب، وأذكر أني وُضعت على الحمارة التي أخذت طريقها إلى الوجهة المقصودة، وفي المذنب أُدخلت في المدرسة السعودية؛ ولكن جُعلت مع طلاب السنة الأولى، فكان المعلمون يتعجبون من هذا الذي دخل سنته الأولى يتقن القراءة والكتابة، وما زال عجبهم حتى ذكر لهم أخي محمد أمر دراستي السابقة، أذكر في نهاية تلك السنة منحت شهادة ظهرت فيها درجاتي العالية.

مراسم وأقلام

في ذلك الصباح في الضحى منه كنا جميعًا في حوش البيت المستأجر في المذنب، كان الوقت صيفًا لأني رأيتني في البيت مع أخواتي وأمي، في ذلك الضحى رأيت أخي يشق طريقه حتى توسط الجمع ووقف كعمود من نور، كان يرفل بثوبه الأبيض الناصع البياض رأيته طويل القامة ينسدل ثوبه على جسده النحيل، كان عاري الرأس إلا من طاقيّة بيضاء، مدّ يده وكانت تضم برفق أربع مراسم (أقلام رصاص) أو ثلاثًا، كانت أسطوانية الجوانب نحيلة. أغلب الظن أنه وقف يريد غترة يلبسها ليخرج.

كانت المراسم في ذلك الزمان وسيلة الكتابة، لا يسمح للصغار باستعمال غيرها، فهي سهلة المسح، ولا يؤذن للدارس باستعمال القلم السقّا (قلم الحبر) حتى يترقى في سلم التعليم ويرتفع عن سن الطفولة، وتختلف المراسم في جودتها فمنها ما يتكسر بسرعة فلا

يقوى على ضغط يد الكاتب، وبعضها يكتب خطًّا مشعثًا، ومنها أنواع نادرة خلطت مادتها بمزاج أزرق لا يظهر أثره إلا بالبلل، فترى الكاتب يبله بريقه فيكتب له بلون أزرق، وأما قلم الحبر الذي يسقى بالحبر فهو أسطوانة داخلها كيس من المطاط توازيه شريحة معدنية تضغطها على الكيس عتلة معدنية مثبتة في جانب أسطوانة القلم، فإذا انضغط الكيس تفرغ من الهواء فإذا ارتفع عنه الضغط ورأس القلم في دواة الحبر (إداوة) امتلأ جوفه بالحبر، وينتهي القلم برأس ركبت عليه صفيحة معدنية تسمى مجازًا ريشة، وهي لسان صفيق مثلث ذو شريعة تنتهي بكُرَيّة هي سن القلم، وأما الحبر فيسرب من الخزان عبر هذه الشريعة، وتعتمد جودة القلم على رأسه فكثيرًا ما كانوا يضطرون إلى تغيير هذا الرأس، ولكن المشكلة قد تكون في مكان تثبيت الرأس فقد ينفلق فيخرج الحبر منه، وطالما عانيت من هذه الأقلام واصطبغت وسطاي بالحبر.

كان لدى أخي محمد قلم حبر متميزٌ شكلُه ولونُه، كان أملس الجوانب فيروزي اللون، ونُقش على جانبه

اسم أخي كاملًا بخط الرقعة الجميل، قال إنه في الأصل لزميله في الدورة الصيفية في الطائف عبدالعزيز الهزاع الذي عانى من سن قلمه وحاول تهذيبه بقصه من الجانبين؛ ولكن ذلك زاد الطين بِلّة فضاق به ذرعًا فأشير عليه أن يبيعه، ولما كان ثمنه غاليًا وزع ثمنه على زملاء الدورة الصيفية فدفع كل واحد نصف ريال ثم اقترعوا لمن يكون القلم من نصيبه فخرجت القرعة من نصيب أخي، فمضى بالقلم وركب له ريشة جديدة ونقش اسمه عليه، ورأيته يستعمله سنوات طويلة.

في مساء كنت واقفًا إلى جوار والدتي رحمها الله في طاق القهوة، وأخي محمد جالس وسط القهوة يرتب رزمة أوراق بيض، وعلى الأرض رزمة بطاقات عرفت بعد سنوات أنها أوراق لعب البلوت[١]، وكنت شاهدت غير مرة تقابل أربعة من الشباب يلقون بالأوراق على الأرض ليحوزها أحدهم أمامه، كان منها المنقط بالحمرة، ومنها المنقط بالسواد، وبعضها فيها صورة

(١) ورق اللعب من الفرنسية belote، ودخلت القصيم من الحجاز.

مكررة متعاكسة، في ذلك المساء لمح أخي قلمًا في جيبي، ولم يكن معه قلم تلك اللحظة، فطلب أن يستعيره مني؛ ولكني رفضت، وألح ولم يفلح إلحاحه، ولم تفلح محاولة أمي برفق، قال سأشتري لك آخر، ولكني ركبت رأسي؛ ولكن بعد أمدٍ:

نَدِمْتُ عَلى مَا كَانَ مِنّي نَدامَـــةً

وَمَن يَّتَّبِعْ مَا تَشْتَهي النَّفْسُ يَنْدَمِ

بسكوت ودموع

في يوم في ضحاه أو بعيد الظهر لا أستطيع أن أحقق ذلك تحقيقًا كنا جالسين في القهوة، عن يميني أخي رشيد رحمه الله، وأمامي في المُحْكُمُة[١] أخي عبدالله رحمه الله، وبين يديه علبة بسكوت يأكل منها، كنت أنظر إليه نظر المتفرج غير راغب في شيء مما يَطعمه ولا منتظرًا أن يهبني شيئًا منه، قال له أخي رشيد: (عط أخوك)، فأبى عبدالله فكرّر عليه الأمر، ولكنه عاند، فقفز عليه رشيد يضربه معاقبًا، وتفلت منه عبدالله وخرج باكيًا يرغي ويزبد، فصادف أخانا محمدًا في الحوش فاشتكى له وهدّد أن يرفع الأمر إلى أمير البلد، كل ذلك وأنا في القهوة، وبعدها رأيت أخي محمدًا واقفًا خلف شباك النافذة بوقار وهيبة، وراح بلطف بالغ وحنان يعاتب أخاه رشيدًا على ما صنع، وراح هذا

---

(١) هكذا تنطق في المذنب وتعني أول موضع على يسار موضع من يصنع القهوة، ولها متكأ، ويبدو أنها في الأصل مكان من له الحكم في المجلس.

يحاول التفسير ويداه تتناول الحطب وتعمل فيها التكسير يريد إشعال نار لصنع القهوة، لا أعلم أكان ينتظر ضيفًا قادمًا، كانت الكلمات تخرج من فيه يغالبها نشيج يفطر القلب، لا أظنه بسبب العتاب نفسه بل بما أحسه من فيض الحنان الذي غُلّف به هذا العتاب.

رادو ومجلات

آلة عجيبة أدخلت بيتنا، صندوق كالسحارة أو هو بحجم تلفزيونات العهد القريب بارتفاع ٥٠ سم وطول ٧٠سم، ويعمل ببطارية ارتفاعها ١٥سم وطولها ٤٠سم، وهذه أطوال تقريبية غير محققة، كان هذا الرادو يسمى (رادو بوش).

يتصل بهذه الآلة الرادو سليك يرتفع نحو السقف ليثبت بسلك مشدود بين ناحيتين في سطح المنزل، يسمون هذا السلك (أنتل)[١] ، وفي واجهة الرادو لوحة زجاجية رسمت عليها خطوط وأسماء مدن، ويرتفع قبالة هذه اللوحة عمود صفيق أحمر تحركه يمنة ويسرة عجلة في الجانب الأيمن من الرادو فإذا صادف العمود مدينة انطلق الصوت بإذاعتها فإذا تجاوزها سمعت خشخشة وأصواتًا مبهمة، ويناظر هذه العجلة في الجنب الأيسر عجلة ترفع الصوت وتخفضه.

---

(١) لفظ دخيل من الإنجليزية antenna واستعمل في مقابله لفظ (هوائي).

كان الرادو في بلدتنا من المحرمات في ذلك الزمان ولكنْ أخي محمد بل أخوتي كلهم من أوائل من اهتموا بالتمدن والتثقف وأدواتها، فكان بيتنا من البيوت القلائل التي دخلها الرادو، كنا نتحلق حوله لنسمع، وكان أمرًا راتبًا اجتماعنا في يوم الجمعة باكرًا لنسمع حديث مشايخ منهم عبدالله خياط وبرنامجًا للأطفال يقدمه بابا عباس[١].

في حج ذلك العام كان الرادو مفتوحًا والمعلق يصف اجتماع الحجاج والاستعداد للصلاة من يوم عرفة، وأصوات الناس المتداخلة تسمعها ضجيجًا من خلفه، رأيت أمي تلصق أذنها إلى سماعة الرادو وتطيل الإلصاق، والعجب قد أخذ مني كل مأخذ، لم أرها من قبل اهتمت بهذا الرادو، ولا رأيتها من قبل تفعل ذلك، سألتها عن هذا الذي رأيته منها، قالت بحنان ولوعة (أبي أسمع صوت ولدي)، كان أخي محمد حجّ ذلك

---

(١) هو عباس فائق غزاوي ولد في مكة عام ١٣٥١هـ، عمل في الإذاعة والصحاف، ثم في وزارة الخارجية.

العام، قلت: كيف تسمعين صوته؟ قالت ببراءة شديدة: (أنا أعرف صوت كحته). لله هذه الأم وطوبى لهذا الابن الذي تميزت كحته عند أمه وهي تطمع أن تسمع صوته، ولو كحة عابرة تنعش فؤادها المشتاق إليه.

لم يكن الرادو وسيلة اتصالنا الوحيدة بالعالم بل اهتم أخي بشراء المجلات على الرغم من اقتطاعها جزءًا من دخل العائلة، رأيت المجلات المصرية (المصور) و(آخر ساعة)، وكنت أنقم على هذه المجلة رسمهم تاءَ (ساعة) مستديرة تامة الاستدارة، أعلم أنهم يحاكون بهذا شكل الساعة، ولكني كرهت ذلك، كنت أقلب تلك المجلات أنظر إلى الصور غير عابئ بالمكتوب بحروف صغيرة، وكان مما يحرص عليه أخي مجلة (الإشعاع) التي كان يصدرها سعد البواردي، وكنت غير ميال لها؛ لأن غلافها كان رقيقًا ولونه كان باهتًا.

زواج أخي

رأيتني في مساء أصاحب أهلي إلى مكان غير بعيد (سمحة)، بين العلاوة والسافية، يسار إليه على الأقدام من غير حاجة إلى راحلة، في بيت صغير إلى جوار بئر وسط مزرعة كانت كالغابة عندي في ذلك العمر، وكل شيء كان طويلًا لقصر قامتي، النخيل والجدران والوهاد، لا أذكر تفاصيل ذلك الزواج، غير أني شهدت بعض الفتيان الأشقياء يحاولون التلصص على غرفة الزوجين.

لا أذكر متى قفلنا راجعين من المكان، ولكن أذكر أنه بعد أسبوع جاءت زوجة أخي ومن معها من النساء، وأقيمت ليلة مَقْدمِها مأدبة كبيرة تسمى (الرحيل)، لأول مرة رأيت أهلي يستعينون بامرأة غريبة للطبخ وإعداد صواني طعام ذات قواعد ترفعها إلى مستوى صدر الجالس.

في الصباح رأيت زوجة أخي تتجول في البيت

تشارك أهله أعمالهم، فقد صارت واحدة من نساء البيت، ورأيت معها طفلة صغيرة تلاحقها، فتحيرت من ذلك، وتساءلت أيمكن أن تكون رزقت ابنة وكبرت في يومين؟ ولكن مع الأيام تبين أن الحمل والولادة ليست بهذه السرعة ولا السهولة، رأيته على ما ظهر عليها بعد ذلك، ثم حين غادرتنا إلى بيت أهلها في سمحة وعرفت بعد ذلك أن (سليمان) ولد، وانتقلت والدتي للعناية بها هناك.

كان يحلو لي أن أذهب إلى هناك لأرى أمي وأرى الوليد الجديد الممهد المستكين في مهاده، ورأيت إلى جانبه وليدًا آخر علمت أنه لإحدى الجارات، وكان ذلك من لطف الله، فزوجة أخي لم تَمكّن من إرضاع ابنها فكان يشارك جاره باللبن. كان وجود الطفلين معًا مجال حديث النساء ومداعباتهن، سألنني يومًا: أيهما أزين؟ قلت هذا، مشيرًا إلى سليمان، قلن بخبث: لا، ليس هذا، ولماذا تراه هو الأزين؟ قلت: كل عين ترى ولدها هو الزين. ضحكن جميعًا من قولي، أما أنا فغضبت واكفهر وجهي، فأدركت والدتي بفطنتها أني ظننتهن ضحكن

علي، فشرحت لي أنهن أعجبن بقولي فهن يضحكن لي لا عليّ.

عادت زوجة أخي بطفلها، ولكنه صار معتمدًا على الحليب الصناعي من نوع (Motherboy)، وحين كبر انعقدت مع الأيام بيننا ألفة وصداقة على تفاوت السن بيننا، أذكر فرحه الشديد كل يوم بعودتي من المدرسة، وكنت عوّدتّه أن نشرب الشاي معًا في ذلك الوقت، وكان يعجبه أني أكيل له السكر كيلًا، وربما كان ذلك علة في إضعاف أسنانه وتسوسها؛ إذ بعد سنوات طلب مني أخي محمد أن أنقله إلى عنيزة للطبيب ليخلع أسنانه المسوسة، كنت أستعير دباب[١] زوج أختي سارة (عبدالرحمن الخميس)، أردف سليمان خلفي ونمضي إلى عنيزة، لم يمانع سليمان من الخلع على ألمه؛ لأنه أراد الامتثال لأمري وأمر والديه، ولعله يستمتع بالرحلة، ولكن الأمر المؤكد أن ما شجعه المكافأة التي تناله بعد الخلع، وهي شرب قنينة من الببسي أو الميرندا.

---

(١) هو ما يسمى الدراجة النارية motorcycle، وسمي دبابًا لصوته.

زواج أختي الكبيرة

رأيت في أيام متوالية كهلًا يزور أبي ضحى النهار، كان أنيق الملبس بثيابه الناصعة؛ ولكنه منطفئ العينين لم يستول عليه العمى، إذ ما زال بصيص من نور يتسلل إلى عينيه، كان أبي يهتم لحضوره الاهتمام كله ويصغي لكلامه، كان هذا الرجل من أعيان البلد تفضل عليه بإنقاذه من الظمأ، اهتم والدي بإعداد القهوة والشاي له بنفسه وساق الفنجان إليه مرحبًا به، كنت حاضرًا أسمع وأرى، وكان بين حين وآخر يلتفت إلي يمازحني فيعرض عليّ الزواج من ابنته ولكنه يسألني: بك وحدة؟ أي استطاعة فأتحداه بالقول إن بي اثنتين. ويقول عندك ... (أي ذاك من الرجل) فأرد عليه عندي ثلاثين فيغرق في الضحك، وكان جوابي هذا مثار عجب أخي عبدالله إذ لاحظ رحمه الله أني أردت بها أن تكون بعدد أيام الشهر، وكان من فرط إعجابه يرددها ويرويها وهو غارق في الضحك.

كان محور الحديث بينه وبين والدي يدور حول خطبته أختي لأخيه الذي يعيش خارج الوطن، وكان يشكل على والدي أنه لا يعرف ذلك الرجل البعيد، فكان هذا يهوّن الأمر فيقول لأبي مطمئنًا: أنا الزوج في كل شيء، وأما أخي فزوج فراش، كان يطمئن والدي أن ابنته ستكون في حمايته وسيكون مسؤولًا عنها مسؤولية كاملة، أي إن لم يكن زوجها حاضرًا في كل حين فأنا حاضر، وكأنما أشكل على أبي أنه في بلد آخر، ولكن هذا الوجيه يتعهد له أنها ستبقى إلى جوار أهلها لا تغادر بلدتها وأن أخاه سيختلف إليها بين حين وآخر.

لم يرق أمر هذه الخطبة لأخي محمد، وأبدى قلقه وتوقفه فيها، ليس لأن هذا الزوج في خارج البلاد فقط بل لأنه على غير ثقة بالقوم، وبخاصة هذا الوجيه الذي أساء إلى أحد الموظفين لديه وكفّه عن العمل كفًّا، وكان صديقًا لأخي فكان هذا مزعزعًا للثقة باعثًا على التوقف.

استطاع الوجيه استمالة والدي وكان قويّ البيان واضح الحجّة، وله من المكانة الاجتماعية ما تغري بالارتباط بأسرته.

أصرّ والدي على المضي في هذا الزواج، وأصرّ أخي محمد على موقفه، ولكن حدث ما لم يحسب حسابه، غضب والدي غضبًا شديدًا فهجر البيت عائدًا إلى بيته القديم في نبعة، وأما أمي فركبها الهم والغم، وهنا لم يجد أخي بدّا من استرضاء والده وطلب الصفح منه والعودة إلى البيت.

في تلك القهوة السوداء التي كساها أخي يومًا بالصحف، رأيت والدي متزملًا بمشلحه البني جالسًا القرفصاء مسندًا ظهره إلى الجدار، وأخي محمد قد جاء إليه، ولا أدري من معه؛ ولكني كنت حاضرًا، قبّل رأس أبيه ويديه واعتذر ما شاء الله له أن يعتذر، والنشيج يقطع مفاصل جمله المتتابعة، ولكنه استطاع بحكمته وأدبه وحرصه على تلاحم الأسرة أن يرضي أباه.

في ليلة زواج أختي رأيت أخي هاشًّا باشًّا يتقدم العريس ومن معه وهم يسعون للدخول إلى البيت حيث العروس في غرفتها تنتظر.

أخي ووالدنا

أخي محمد حفيٌّ بوالدنا قريب منه، طالما حدثنا عنه بأحاديث طريفة ممتعة، منها ما حكاه عنه أنه كان في رمضان صيفٍ قائظ، كان الوالد منشغلًا ببيع تمر لبعض البادية، قال أخي: ولما انقضى البيع وانصرف القوم رأيت الوالد وفي يده جرزة[1] من تمر راح يأكل منها تمرة بعد تمرة، وأنا أراقب ساكتًا متشاغلًا عنه حتى إذا أخذ كفايته مددت له ماءًا كنت هيأته له، فتناوله وشرب وحمد الله، قال أخي: قلت له هنيئًا والآن الزم يا أبا محمد، فرفع صوت ندم وعتاب وقال: لم تركتني! قال أخي: الله أطعمك وسقاك. ومن عجائب البادية مع والدنا أنهم رأوا علب الصلصة فسألوه عنها فقل إنها توضع مع الطعام المطبوخ، أعجبهم هذا الشيء الطريف فاشتروا منه، ولما كان الغد إذا بهم على الباب يشتكون إليه أنها لم تلن ولم تنضج على الرغم من

---

(١) الجرزة من التمر الكتلة منه.

إسرافهم في طبخها، فضحك الوالد وأحضر لهم مفتاح علبة الصلصة وأراهم كيف يفتحونها.

ومن الطرائف ما حكاه له الوالد أن أحد أصحابه كان يشكو إليه: يقول "يا سليمان أنا راسي قُبَل به سومة[١]"، فقال له: لعلك ما تنام نومًا كافيًا، قال: ما هنا أكثر من نومي، وكان الرجل عزبًا، لا أحد معه في حجرته، فقال له الوالد: دعنا نذهب إلى غرفتك، وهناك رفع الوالد بعض أغطية قدور الرجل ففاحت رائحة، فقال له الوالد: متى طبخ هذا الطعام، قال منذ خمسة أيام، فقال له الوالد: وأنت تأكل منه؟ قال: نعم يا سليمان، قال الوالد: الله يهديك أن تسكر، هذا الأكل متخمر، وراح يضحك منه.

ومن ذلك ما حكاه عن أحد الأقارب الذي سمع بالسراج الجديد النظيف الذي لا تطفئ شعلته نسمة الهواء، وهو المسمى (فنر) اشترى الرجل فنرًا وعلّمه الوالد كيف يملأ الخزان حين يفرغ وأراه كيف يرفع

(١) قُبَل أي دائمًا، والسومة أن يحس شيئًا من فقدان الوعي والدوار.

الزجاجة بعتلتها لتتبين الفتيلة، وكيف يشعل الفتيلة، وأهم من ذلك كيف يخفض الفتيلة حتى تكاد تختفي ثم تنفخها ليطفأ الفنر، وعاد الرجل إلى والدي غير مرة مشتكيًا أنه عجز عن إشعال السراج، فلما نظر الوالد وجد أنه أسرف في خفض الفتيلة حتى انفلتت من مجراها وسقطت في الخزان، فيسعى الوالد إلى إخراج الفتيلة من الخزان وإدخالها في مجراها ويشعل له السراج ويوصيه أن يترفق في إدراج عجلة الأسنان حتى لا تسقط الفتيلة، ولكن الوالد عانى كثيرًا حتى تعلم هذا الرجل إشعال الفنر وإطفائه. ويروي الوالد عن الرجل نفسه حكاية أخرى وهي أنه مضى إلى تاجر في المذنب يبيع بضائع منها الخرّاشات أي الساعات المنبهة، اشترى واحدة وأوصاه البائع أنْ يعشيها مع غروب الشمس، وكان اليوم في ذلك الزمان يبدأ من المغرب، إذ تبدأ الساعة الواحدة بعد الغروب، فالليلة هي ليلة ما بعدها من نهار، وهي طريقة العرب القدماء، ولذا يؤرخون بالليالي، يقولون لخمس مضين من رجب، ونحوه، مضى الرجل إلى أهله، ولما كان الغد كان أمام

التاجر يشتكي من الساعة، قال: ساعتكم ما اشتهت عشانا عطيناها مرقوق وتركته، فضحك التاجر حتى استلقى على قفاه، وشرح له معنى عشا الساعة، وهو أن يلف زمبلك[١] الساعة بالمفتاح الذي خلفها حتى يستحكم ليضمن لتروسها الحركة، وأن يلف مفتاح تجديد خرش الساعة.

ومن طرائف الوالد التي سمعناها منه رحمه الله ما حدث له في الحجاز، كان يتجوّل في أسواق مكة منبهرًا بتنوع بضائعها حتى صادف دكّانًا أعجبته بضاعته أشكالها البراقة، علب مصفوفة صفًّا أنيقًا مغريًا، فقال للتاجر: هات من هذا مشيرًا إلى رفّ من الرفوف، قال له التاجر: روح يا شرقي، ما يصلح لك، وأهل الحجاز يطلقون على أهل نجد الشروق والواحد شرقي.

قال الوالد: أريد أن أشتري منه، فكرر عليه التاجر:

---

(١) الزمبلك شريحة حديدة صلبة نابضة يثبت طرفها في محور وتلف الشريحة في دوائر حول المحور فتتحصل بذلك قوة دفع نبضية ما تزال تفك اللف، وهذا ما يحرك تروس الساعة، ساعاتها ودقائقها، ولها ضبط متى بلغته تسلطت مطرقة فتتابع الطرق على جرس، وهذا ما يسمى خرش الساعة.

روح يا شرقي ما يصلح لك، أحس والدي أن التاجر يتعالى عليه بأن يمتنع من معاملته والبيع له، فعاند وقال: لم لا تبيعني، أنا معي نقود وأنت تبيع بضاعة، وهنا قال التاجر له وقد استيأس منه: أنت تدري ما هذا؟ قال والدنا: لا، قال التاجر: هذا تتن، (أي دخان)، وهنا اكفهر وجه والدنا وولى مدبرًا ولم يعقب؛ وكانت قهقهة التاجر تلاحقه وقوله: قلت لك يا شرقي، قلت لك يا شرقي.

لوحات

"الأجار دمٍّ فاسد" مثلٌ كان والدي يردده وهو يحث أخوتي على شراء بيت، وكان من رأي أخي محمد أن تُشترى أرض وأن يُشيَّد عليها بيت مناسب لأفراد الأسرة، فهو متزوج وسيأتي وقتٌ يتزوج فيه أخواه الشابان رشيد وعبدالله رحمهما الله، كان يفكر في المستقبل؛ ولكن الوالد أراد حلًّا سريعًا، فقد أهمه ضياع مال أبنائه في الإيجار، وكان يحتجّ بمثل آخر قريب من المثل الذي أورده عبدالكريم الجهيمان في الأمثال الشعبية ٤/٤٣ (شراه ولا غذاه) "أي شراء الشيء بعد أن يستكمل كيانه ومقومات حياته خير من شرائه صغيرًا ضعيفًا ثم العناية به".

كان الأخوة من البر والمحبة لأبيهم أن لبوا رغبته وسارعوا في البحث عن بيت، ووجد البيت؛ ولكن الخلاف وقع بين صاحب البيت والأخوة في ثمنه، كان يريد خمسة وعشرين ألف ريال، وأما هم فرأوا البيت لا

يستحق أكثر من عشرين، وكادت الصفقة تفشل، ثم علم الأخوة موافقة صاحب الدار بعد ذلك، ولكن الأخوة عجبوا من اختفاء خمسة آلاف من المبلغ المدخر، وعرفوا بفطنتهم أن والدهم دفعها لصاحب الدار ليوافق بعدها على عشرين الألف، دُفع مقدمًا جزء من القيمة ونُجّم جزء آخر، وكم مرة شهدت حضور صاحب الدار وجلوسه على الأرض ليضع له أخي رشيد رحمه الله زمرًا من الأوراق النقدية، أراه يجر كل زمرة فيعدها ثم يجر غيرها.

ولما استقر بنا الحال في البيت سعى أخي إلى تزيين جدران القهوة بلوحات تتضمن آيات وأحاديث وحكم، كتبت هذه اللوحات بخطوط بالغة الروعة كالثلث والنسخ والديواني والفارسي، كتبها أشهر الخطاطين كالخطاط التركي حامد الآمدي، وهي لوحات تتداخل فيها حروف الكتابة وتتقاطع لتؤلف لوحة فنية عجيبة، منها لوحة كتبت بالخط الفارسي (كن مع الله)، وكنت أعجب من ذكاء الخطاط الذي جعل كأس النون بطنًا للعين. ومن الآيات بالثلث ﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا﴾،

ومن الأحاديث {إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه}. وبعض اللوحات يتحير المرء في قراءتها، كانت هذه اللوحات تستوقف كثيرًا من الزائرين، أما أنا فلم أكن أمل من مطالعتها والتمتع بمحاولة قراءتها. لأخي لمسات جمالية عجيبة.

إدارة حكيمة

كان أخي محمد مديرًا للمدرسة يحسن إدارتها، ويعرف كيف يؤلف بين قلوب زملائه، وكيف يضبط، برفق لا ضعف فيه وبحزم لا قسوة فيه، أمورَ طلاب المدرسة، وأما ما قد يحدث من مشكلات فإنها تجد من حكمته وذكائه الإداري ما يحلها، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر حالة طالب كان أصيب بعيب خَلْقي؛ إذ كانت أضلعه منحنية بارزة أعلى صدره، وهذا يحول بينه وبين القدرة على ممارسة الرياضة البدنية ولعب الكرة التي يشوقه أمرها ويتحسر وهو يرى غيره يستمتعون بها، ولما كان أمره كذلك طالب أن يعفى من مزاولة الرياضة، فرُفض طلبه؛ ولكنه نزق لا يهدأ له بال وغيره يلعب، فإذا به يغري الطلاب ممن يطاوعونه بترك الرياضة ومقاطعتها، وليس يمكن أن يعفى من الرياضة خشية أن يطالب غيره بمثل ما طالب، ثم إن الطالب استعدى والده على مدير المدرسة الذي كاد

يناله منه الأذى لولا صبره وحكمته ومحاولة معالجة الأمر بأن طلب من والد الطالب أن يعرض أمره على أطباء المستشفى ليكتبوا تقريرًا بشأنه يعتمده في إعفائه من الرياضة، ولقي هذا الاقتراح هوى من والد الطالب، فكتب المدير لهم خطابًا يشرح للمستشفى الحالة ويطالب بتقرير عنها. وكان من حسن حظ هذا الطالب المسكين؛ فقد أدخل المستشفى وصحح العيب الخلقي وعاد بعد ذلك قادرًا كغيره لا يعوقه عن مزاولة الرياضة شيء.

ما يستفاد من الحديث

ومما عرفته من ذكاء أخي أبي سليمان وحكمته مثال في التربية التي هي علم وفن له أصوله ومفرداته، وهي رصيد هائل من تجارب الإنسانية وخبراتها. ولكن استثمار ذلك العلم والانتفاع به غير مستغن عن الاستعداد الفطري للإدارة. فمن بديهة تبادر إلى معالجة المعضلات إلى حكمة تأخذ طريقها إلى أفئدة البشر وعقولها.

كنا صفًّا تعيسًا في مدرسة ابتدائية؛ إن أفلحنا في حفظ نصوص الحديث الشريف فإنا نخفق في حفظ ما يستفاد من تلك الأحاديث، لقينا العنت من شدة عقابنا أستاذُ الحديث. وكانت العصا تنهال علينا فلا ترتفع عن أيدينا ولكن دون جدوى؛ كنا مطالبين بحفظ نص الحديث وهذا أمره ميسور، ولكنه طالبنا فوق ذلك بحفظ ما دُوّن في الكتاب من الفوائد التي تستفاد من الحديث، وكان أمر حفظها فوق الطاقة فهي شديدة

التفلّت من أذهان أقدرنا حفظًا، فلما اشتدّ الكرب بنا أجمعنا أمرنا وذهبنا جميعًا مشتكين عند مدير المدرسة الذي استقبلنا بهدوء ووُدّ، فلم نر منه إنكارًا لأمرنا ولا إهمالًا لشكوانا، بل وعدنا أنه سيُشكينا[١]، وتفتق ذهن المدير عن حل عبقري؛ إذ وجه المدرس وطلابه إلى استنباط ما يستفاد من الحديث من نص الحديث نفسه دون حفظ ما اجتهد المؤلفون في كتابته. فلما جاء درس الحديث بعد هذه الشكوى رأينا أستاذنا قد غير طريقته، وخالف عن سالف عادته بما ثقفه من أخي محمد، فبدأ بأن كتب نصّ الحديث على اللوح، وبدأ بمعالجة جماعية لفهم الحديث واستنباط الفوائد، واستحال درس الحديث بعد ذلك إلى متعة بالغة، فكان مجالٌ لتفنن الطلاب في استنطاق المعاني والدلالات. وتحولت دروس العَذاب إلى دروسٍ عِذاب. فكنا نأتي بما جاء به الكتاب من فوائدَ ونزيد عليها بما تتفتق عنه أذهاننا من تأمل بفوائدِ النص، وهي مهارة ملكناها، فلما

---

(١) أي سيزيل سبب شكوانا.

انتقلنا للمرحلة المتوسطة كان مدرس الحديث هناك يعجب من قدرتنا على الاستنباط، وربما توقف هنيهة ليرى علاقة ما ذكرناه بنص الحديث.

لم يكن أبو سليمان في ذلك الوقت قد درس شيئًا من الإدارة فلم يكن معهد الإدارة قد أنشئ ولم يدخل كلية لتعلم الإدارة؛ ولكنها الإدارة الفطرية التي جبل عليها. أهلته دراسته الابتدائية ليكون معلمًا ناجحًا ثم مديرًا للمدرسة، حتى إذا انتقل إلى الأعمال الإدارية في مؤسسات تعليمية أخرى مثل جامعة الملك سعود والرئاسة العامة لتعليم البنات كان مبدعًا في معالجة ما يوكل إليه من مهمات. ولو كتب أبو سليمان محمد الشمسان ما سمعت بعضه منه لكان لنا رصيد من التجارب والدروس المستفادة التي يمكن أن يتمثلها من لا خبرة له.

مكتب البريد

كان المسافر من بلدنا يُحمّل بالرسائل الشفوية وبالرسائل المكتوبة يحملها للجهة التي يقصدها، مرهون وصولها بسلامته ونشاطه، وأما البريد الحكومي الطوّاف فما كان يلمّ بالبلد سوى مرتين في الشهر، ولكن المراسلات زادت مع ازدياد السيارات التي هيأت للناس الارتحال إلى أماكن أخرى بحثًا عن لقمة العيش أو مواصلة دراسة غير مهيأة في البلد.

والبريد مظهر من مظاهر التمدن التي كان يحرص أخي محمد أن تتصف به المذنب، من أجل ذلك كانت منه مكاتبات ومطالبات لإنشاء البريد، وهو يقص حكاية ذلك في خطاب كتبه إلى الأستاذ عبدالرحمن بن عبدالله الغنايم في ١٤٣٨/٦/١٣هـ، قال "سبق أن حدثتكم عن موضوع بداية إنشاء البريد بالمذنب ووعدتكم بإرسال ما يوضح ذلك، وقد تأخرت كثيرًا بسبب الوضع الصحي لا أراكم الله مكروهًا، وتجدون برفقه مذكرة مدير

لاسلكي وبريد وهاتف عنيزة رقم ٦٧٠ وتاريخ ١٣٨١/١١/٢١هـ، وبموجبها رشحت لهم المرحوم عثمان بن محمد الدخيل، وأعطيته خطابًا بذلك، فوقع معهم عقدًا، وفتح المكتب بدكان واجهته شماليّة قبالة البرحة الشمالية وجدار المقبرة، قبل دكان أبو يحيى الخباز، وكان مسجد ابن رخيص عبارة عن صندقة[١] في الجهة الشرقية، واستلم [عثمان] لوازم المكتب من كراسٍ، ومكتب، ودولاب، وأختام، وطوابع، عهدة عليه، واللوازم الكتابية والشمع وسندات الإيصال للبريد المسجل والبرقيات وأكياس مشمعة لتجهيز الإرساليات، وبيانات الصادر والوارد، والإحصائيات، وكل ما يلزم. وقمنا معه رحمه الله بالعمل وتكاتفنا أنا وعثمان الحسياني رحمه الله وعبدالعزيز المقبل ومجموعة من الشباب. وكان البريد الطوّاف يمرّ بالشهر مرتين ورفعنا الإحصائيات تباعًا بمجهود مجموعة من الشباب حتى صارت مقنعة لفتح المكتب رسميًّا، وكان

---

(١) الصندقة البناء الخشبي كأنه صندوق كبير.

للأخ موسى الضبيبان رحمه الله في الإدارة بعنيزة دور كبير في رفع الإحصائيات للمديرية العامة بالرياض".

كنت أختلف إلى مكتب البريد هذا، يعجبني نظام تسلم الرسائل وتدوين بياناتها وضم بعضها إلى بعض، كانت الرسائل المجتمعة تحشر في كيس خاص له فوهة ذات حافة مكفوفة على خيط كربقة[١] السروال، ومن شأن هذا الخيط أن يشدّ شدًّا قويًّا يزمزم حذافير الفوهة فتنغلق ثم يدغم الخيط في قطعة رصاص مثقوبة تعجن بكُلّاب فتصير قرصًا يطبق على الخيط فيمنع الزمزمة من الارتخاء ثم يفرغ ذائب شمع أحمر على الخيط ويختم عليه بختم البريد.

---

(١) لم يكن للسروال هذا الضاغط من اللدائن الحديثة، فكان يكف أعلاه ويدخل في الكفة سريحة قماش مربوط طرفاها فيعقدها لابس السروال بما يناسب خصره. وتسمى الربقة تكّة أيضًا.

إدارة الأزمات

أخي محمد أبو سليمان ليس بارعًا في إدارة المدرسة وحدها بل بما هو أخطر من ذلك، وهو إدارة الأزمات، مثال ذلك ما صنعه في تلك الليلة الليلاء من يوم الجمعة الخامس من شوال عام ١٣٨٢هـ الموافقه ١ مارس ١٩٦٣م، حين أرخت السماء شآبيب كأفواه القرب، وتدافعت السيول واكتضت الأودية: وادي مظيفير ووادي نسر ووادي الوُديّ، وأخذت منحدراتها ومسايلها نحو مجراها في وسط المذنب وأمتلأ حوض (المغيريب)(١) بالماء الذي كان يندفع ما زاد من مائه بين المزارع نحو السفايل غرب ضلع خرطم وخريطم؛ ولكن كانت مدافع السيل محبوسة بقنطرة لم يحسب منشئها حساب هذا السيل، وما خطر بباله أنه مدمر،

(١) سمي بالمغيريب تصغير مغراب، لأن بقية الماء تبقى في قاعه مدة طويلة حتى يتغير طين القاع إلى السواد وهو ما يسمى (غربة) أي لون أسود كلون الغراب، وهو طين تطلى به جدان البيوت الخارجية فتكون مقاومة للمطر فيزل عنها.

حاول بعض الناس هدم القنطرة بمساحيهم ولكن دون جدوى إذ تراكم الماء وتدافع، وبدأ يفيض متراجعًا نحو البيوت المنتشرة على جانب الوادي، بيوت طينية لم ترتفع على أسس من حجارة، في تلك الليلة سمع أخوتي بدخول الماء إلى أقرب البيوت من المغيريب، وأيقنوا أن الماء سيدخل بيتنا، فأخذوا يخرجون أكياس المؤونة من وسط الدار إلى الليوان المسقوف يراكمون بعضها فوق بعض، وكان أبعد أنحاء الدار، رجاء أن تسلم، كُلّفتُ في تلك الليلة مراقبة وصول الماء، فانتظرت ما شاء الله لي الانتظار؛ ولكني أعلنت وصول الماء تخرّصًا وتعجّلًا مني.

في تلك الليلة فاض الماء مقتحمًا البيوت، وخرج الناس موفضين[١] بما خفّ من متاعهم، ولم يكن والديّ يريدان مغادرة المنزل لولا سماعهما صوت البيوت تتهاوى، وكثير من كبار السنّ رفضوا الخروج لولا إلحاح الشباب عليهم وإقناعهم بلطف ورويّة.

---

(١) أي مسرعين.

أثناء تلك الليلة المدلهمة، جاء قرار المدير الحصيف، فتح المدرسة، وأعطى كل أسرة غرفة تستقر فيها ليلتها تلك وما بعدها من الليالي حتى يأذن الله بالفرج، لم يجد ضرورة للانتظار لاستئذان مسؤول عن ذلك، بل اتخذ ما رأى الواجب الإنساني يقتضيه وهو أمر حمد له.

فرحت وفرح من هم مثلي بسكنى المدرسة وتعطل الدراسة، ولكن ذلك لم يدم إذ وجهنا إلى مدارس الضواحي الأخرى، فتعلمنا مع زملاء آخرين وعلمنا أساتذة آخرون، حولت إلى المدرسة الفيصلية.

النادي الأهلي

امتدادًا لسعي أخي إلى تمدن بلدته كان النادي بعد عام من افتتاح البريد، رأى أخي محمد أن ينشئ ناديًا رياضيًّا يليق بالبلد ويرضي طموح شبابها، وكان أول اجتماع للمشاركين في النادي بعد عصر يوم ١/٩/ ١٩٨٢هـ، وهم حسب ورود أسمائهم في وثيقة الاجتماع: عبدالله المحمد العليوي، وسليمان السعيدان [اللذيذ الآن]، ومحمد العبدالله الحسين، وعبدالعزيز المقبل، وعبدالله السليمان الرشيد، وعبدالله المقبل، ومحمد السليمان الرشيد، ومحمد الحمد المقرّي، وعبدالعزيز الحسيّاني. كان مقر النادي يضم حوشًا واسعًا وغرفة جعلت لإدارة النادي.

بلغ من فرحي بالنادي وبانضمامي إليه أن كتبت اسمه على قماشة مستطيلة واستعنت بأختي سارة لتطرز بالخيوط اسمه، ورأيت هذه اللوحة على تواضعها تزين جدار إدارة النادي.

ولم يكتف أخي بأن يجعله ناديًا رياضيًّا بل أراده مركزًا ثقافيًا، قال في رسالته لعبدالرحمن الغنايم "فقد كان النادي نواة طيبة وأصدر مجلة اسمها (رسالة النادي) طُبع منها أعداد دورية على آلة خاصة بالمدرسة السعودية، وممن كتبوا فيها حمد الجاسر رحمه الله وعثمان الصالح رحمه الله ووزير المواصلات آنذاك وأظنه عبدالله السعد، وكثيرون، ولا تلمني فالذاكرة الآن ضعيفة، وكتب فيها الدكتور يوسف أبو الحجاج رئيس قسم الجغرافيا بجامعة الملك سعود".

هدته خبرته الإدارية إلى مخاطبة جهات قد تدعم النادي، منها شركة أرامكو التي أرسلت أدوات رياضية وكتبًا، قال أخي "ووصل للنادي خطابات وكتب من شركة الأرامكو ومن مدير المعارف في قطر محمد المانع رحمة الله عليه ومن مندوب البنات في بريدة وآخرين".

بدأ النادي قويًّا ووجد إقبالًا شديدًا من الشباب، فانضموا إليه، وشكل فريق لكرة القدم وفريق لكرة الطائرة، وأذكر أني سجلت في فريق كرة الطائرة.

كان يتولى تدريب فريق كرة القدم الأستاذ

عبدالقادر محمد محمد علي أستاذ اللغة العربية في المدرسة المتوسطة، شاب سوداني ذو خلق عظيم أحبه أهل المذنب وأحبوه حتى إنه يوم رحيله خطب في المسجد بعد الصلاة بخطبة وداع بكى فيها وأبكى الناس معه، لم تشهد بلدنا أستاذًا بهذا النبل والوفاء.

كان الأستاذ عبدالقادر يدرب فريق كرة القدم متبرعًا، ويشاركهم اللعب في المباريات التي تكون بينهم وبين فرق أخرى، ومن ذلك مباراة بين فريق النادي الأهلي وفريق من عنيزة، كان فريق عنيزة أكثر خبرة وأقدم تجربة وأقوى ولذلك فاز على فريقنا فوزًا مبينًا.

كان أخي يعلم بخبرته وذكائه أن فريقه لا قبل له بالفريق الضيف؛ ولكن لابد من التجربة والتدرب على اللقاءات، ومن أجل ذلك رأيته ينصح أفراد فريقه بأن الفوز ليس هو المهم؛ ولكن المهم ضبط النفس والتحلي بالخلق مع بذل الجهد بالمعروف من غير صلف أو صدام، وانقضت المباراة على خير، وكان فريق عنيزة يظن أن الأمر انتهى، وأنّ عليهم ركوب حافلتهم والعودة إلى عنيزة؛ ولكنهم فوجئوا بأن الفريق المهزوم

يدعوهم لتلبية مأدبة عشاء أعدت لهم؛ فهم ضيف على البلد أوّلًا وهم ضيف على النادي الأهلي آخرًا، لبى فريق عنيزة الدعوة مبتهجين مسرورين بما لقوا من طيب حفاوة وترحيب غير معتادة في اللقاءات الكروية التي هي حروب مصغرة مهما حاول أصحابها التحلي بالروح الرياضية.

في تلك الليلة كان تدبير أخي درسًا مدهشًا في الخلق والشجاعة لتقبل الخسارة؛ لأن الهدف قد تحقق وهو التجربة.

رأى بعض الشباب من أفراد النادي أن من الخير أن يكون للبلد ناديان لا ناد واحد، ومن هنا غادرت مجموعة منهم لتنشئ في المذنب ثاني ناد رياضي سمي (نادي نسر)، أخذ اسمه من وادي نسر أحد أودية المذنب، رأسه محمد بن عبدالله الحسين ثم عبدالله الدعيجي ولكن هذا النادي لم يجد مع الأيام إقبالًا كافيًا، ولما رأى أصحاب نادي نسر إقبال الناس على النادي الأهلي وعزوفهم عن نادي نسر لقلة إمكاناته طلبوا الانضمام إلى النادي الأهلي فرحب بهم.

سنة بثلاث سنوات

كانت كثرة أعبائه حائلًا دون تكملة مسيرته التعليمية؛ ولكنه لحدة ذكائه استفاد من فرصة أتيحت لنيل شهادة الكفاءة المتوسطة في سنة واحدة تزوي ثلاث سنوات، رأيت جده في الدرس، رأيت دفاتر ما سبق أن رأيتها من قبل، كانت أوراقها مجموعة بسلك معدني لولبي، كان من متعي البالغة تقليب دفاتره للنظر إلى جمال خطه، وحسن تنظيمه، وخطوطه التي يرسمها بالمسطرة والمرسمة (قلم الرصاص).

ومن الجميل أنه كان يسمعنا بعض ما كلف حفظه من نصوص الأشعار فكان مما أسمعناها بصوته العذب بعض أبيات من قصيدة معن بن أوس:

وذي رحمٍ قلّمتُ أظفارَ ضغنهِ

بحلميَ عنهُ وهو ليس لهُ حلمُ

وأسعى لكي أبني ويهدم صالحي

وليس الذي يبني كمن شأنهُ الهدمُ

٨١

يحاولُ رغمي لا يحاولُ غيرَهُ

وكالموتِ عندي أن يحل به رغمُ

فما زلتُ في لِيني لهُ وتعطّفي

عليهِ كما تحنو على الولـــــدِ الأمُ

لأستلَ منهُ الضغنَ حتى سللته

وإن كان ذا ضغنٍ يضيقُ به الحـزم

ضيوف البلد

لم يكن أخي محمد مدرسًا أو مديرًا منكفئًا على عمله بل من رجال بلدته العاملين على تقدمها ورقيها المهمومين بشأن تمدنها، وبلدتهم ريف من أهم صفات قاطنيه الكرم ببذل الميسور، إكرام الضيف من أكثر ما يسعون إليه ويحرصون على أدائه.

كان أخي محمد رجلًا كريمًا يستقبل الوافدين إلى البلد ويحسن إكرامهم، من الضيوف من رأيته في ضيافة أخي غير مرة الأستاذ عبدالرحمن العليّان حين انتدب رئيسًا للجنة الاختبارات للسنة السادسة الابتدائية، وكان اختبارًا جماعيًا لطلاب مدارس المذنب كلها يعقد في مقر مدرستنا: المدرسة السعودية.

ومن أطرف ما رأيت دعوته أعضاء شركة إيطالية تفحص تربة الطريق المعبد الذي سيمر بالمذنب، ولم يكن في بيوت بلدتنا في تلك الأيام سوى المعتاد من أدوات الطعام؛ فالغداء يقدم في صحن واحد يطعم منه

الطاعمون بأيديهم، كان أخي يعلم بثقافته ومعرفته أن هؤلاء القوم لن يسيغوا الأكل من صحن واحد، ولا أن يأكلوا بأيديهم كما نأكل، وكان من حسن التوفيق أن جارنا الأستاذ محمد العبدالله الحسين لديه أطباق وملاعق وشوك وسكاكين، استعار أخي لهم تلك الأدوات. وبعد تناول التمر والقهوة العربية اللذين أدهشا الإيطاليين وضعت في الليوان المائدة، صحن كبير حوله أطباق معها لوازمها، وكان كل ذلك على الأرض، واضطر الإيطاليون أن يجلسوا بملابسهم الضيقة جِلسة متعبة، رأيتهم كيف وجدوا العنت في تلك الجلسة. ولو كان أخي يعلم أنهم سيعانون تلك المعاناة لتفتق ذهنه عن حلّ مناسب ولكن ذلك لم يخطر له بخاطر.

سمعت أخي بعد ذلك يعتذر إليهم من أن الدجاج لم يكن ناضجًا كل النضج؛ ولكن الضيوف أبلغوه أن ذلك المستوى من النضج هو ما يروق لهم، لم يكن أخي محمد يتكلم الإنجليزية؛ ولكن كان أخي رشيد يجيدها بكفاية بالغة فكان هو المترجم بين أطراف الحديث.

انتشر خبر هذه الضيافة في البلد فنال أخي من عتاب بعض أصدقائه ما ناله، كأنما رأوا أنهم أهملوا، ولم يَعلموا أن مثل هذه الدعوة خاصة لا تدعى لها الجفلى[١].

---

(١) الجفلى في معجم (الصحاح) "وهو أن تدعوَ الناس إلى طعامك عامة".

طلاب الجامعة

في صباح يوم من أيام ذي الحجة عام ١٣٨٢هـ شهد بيتنا حركة نشطة غير معتادة، في ذلك الصباح كانت وجبة الإفطار تعدّ لزوار وفدوا إلى بلدتنا (المذنب) التي لم يكن فيها في ذلك الوقت فندق أو شقق تؤجر؛ ولكن أخي محمد أطال الله عمره أحسن استقبالهم وهيأ لهم مبيتًا في المبنى الوحيد المسلح في (المذنب) وهو المدرسة السعودية التي كان أخي مديرها في ذلك الوقت، رأيت الزوار في بيتنا، رأيت شبابًا بثيابهم البيضاء الأنيقة، وبروحهم المرحة المتوثبة النشطة، علمت أنهم من طلاب قسم الجغرافيا (جامعة الملك سعود)، ومعهم أستاذهم الدكتور يوسف أبو الحجاج، قال أخي محمد في خطابه إلى الأستاذ عبدالرحمن الغنايم متحدّثًا عن د.يوسف: "حيث مرّ بالمذنب مع الدفعة الأولى للجامعة في بحث لجيوليجيا القصيم وأبقيناه ومجموعته ثلاثة أيام بلياليها، وأسكناهم

باستراحة المفتشين بالمدرسة واستضفناهم وعملوا دراسة للمذنب شملت خرطم وصخورها والخسف وجميع المتطلبات الجغرافية والجيولوجية".

جاء هؤلاء في رحلة علمية ليطلعوا بأنفسهم على ما حدث من تغير فجائي في سطح الأرض في هذه البلدة، في منطقة الصفراء منها الواقعة في الغرب من البلدة بينها وبين ضاحيتي العين ونبعة، شهدت تلك المنطقة خسوفًا أرضيًّا في غير موضع، فانهارت القشرة الأرضية مخلفة فجوة كبيرة، وبعد أشهر من هذه الزيارة وصلت إلى أخي مستلة تضم مقالًا لطيفًا كتبه الدكتور يوسف أبو الحجاج، عنوانه (ذكريات عطِرة في المذنب الفيحاء) قرأه علينا أخي محمد فسعدنا بما سمعناه، وجاء فيه "وفي أوائل العام الحالي الدراسي ترامى إلى سمعنا نبأ الخسفِ الذي حدث قرب البلدة، فاستأذنت السيد مدير جامعة الملك سعود –وهو بهذه المناسبة من أبناء القصيم[١] - تنظيم رحلة إلى المذنب لطلاب

---

(١) هو أستاذنا الدكتور عبدالعزيز الخويطر رحمه الله.

السنة الثالثة بقسم الجغرافية كلية الآداب ليشهدوا ويدرسوا هذا الحدث الخطير في علم الجغرافية الطبيعية. فأذن مشكورًا، وكانت بذلك رحلتنا الثانية بين الخامس والثامن من شهر ذي الحجة. وقد لقينا في هذه الرحلة الأولى من حسن المعاونة وجميل الترحيب سواء من السادة رجال التعليم أو من السيد أمير المذنب. وذلك رغم الكارثة التي أحلتها السيول بالبلدة منذ وقت قصير، والتي كان من آثارها هدم عدد كبير من بيوتها من بينها بيت سيادة مدير المدرسة السعودية وبعض الأساتذة وقد علمنا بنبأ هذا السيل قبل بدء الرحلة، ولكنا لم نكن نتصور ما أحدثه من تخريب"[١].

(١) محمد بن ناصر العبودي، المعجم الجغرافي-القصيم، ٦: ٢٢٣١- ٢٢٣٢.

رسائل من حضرموت

في ليلة من الليالي بعد المغرب والأسرة مجتمعة للقهوة أظهر أخي الرسالة التي وصلت من حضرموت حيث يُدرّس أخي رشيد رحمه الله، قرأها كما قرأ في المكان نفسه رسالة الدكتور يوسف أبو الحجاج، وما أمتعها من قراءة، لأخي طريقة رائعة في القراءة يحسن تقسيم جمل النص والوقوف عليها، سمعنا في تلك الرسالة وصفًا رائعًا لشوارع المكلا ولمرأة تجتازها لا ترى منها سوى قدميها الحافيتين، وصف لنا بعثة مجلة العربي ولقاءها سلطان السلطنة القعيطية ولقاء المعلمين من البلاد العربية المبتعثين للتعليم في المكلا . وحين جاءت مجلة العربي ذات الرقم ٧٩ الصادرة في ١٣٨٥/٢/١هـ، الموافقه ١ يونيو ١٩٦٥م. سعدنا بقراءة التقرير عن المكلا، وسعدنا برؤية صورة أخي مع الأساتذة وصورته الأخرى مع زميله من المذنب سليمان العليوي. وبعد عام جاءتنا رسالة أخرى من المكلا بعثها

أخي عبد الله رحمه الله، ولكن لم يكن أخي محمد موجودًا ليقرأها، كان قد انتقل للعمل في الرياض، فقرأ الرسالة والدي وشدّ انتباهي أنه وصف شارع المكلا كما وصفه أخوه من قبل ولم ينس المرأة ذات القدمين الحافيتين.

في منتصف العام الدراسي كنا جلوسًا في الليوان أنا ووالدتي وأخواتي، ورأينا والدنا يقبل نحونا وكان في هيأة المستيقظ من النوم، عليه آثار السبات، قال لنا: عبدالله سيأتي، سألت أمي: كيف عرفت؟ قال: رأيته في المنام ينزل من الدرج. ولم يعر أحد منا هذا القول التفاتًا، فليس سوى حلم، ولكن بعد أيام وصل أخي وصدق حلم والدي. عاد وحكى لنا من الحكايات الطريفة ومن تصرفات المعلمين هناك مما لا ينتهي منه العجب، أما هو فلم يعد إلا لأمر يلمّ به ولا يعرف له علة ولا سببًا، أمر رأيته بعيني فأفزعني كل الفزع. كنا جلوسًا في الحوش حين خرجت زوجة أخي إلينا فزعة تنادي والدي: خال خال الحقْ ولدك، قفز والدي وجرى إليه وأنا وراءه، رأيته يمسك برأسه، وأما أخي

فكان يرفس برجليه، وجسمه منتفض مضطرب، وفمه يثور بالزبد، فزع والدي إلى حفظه من القرآن أيقن أن جنًا ألمّ بابنه، وما زال يتلو وينفث عليه حتى هدأ، كان أمرًا مروّعًا لم أعرف ما هو حتى ذهب أخي إلى الرياض وفحص وتبين أنه نوع من الصّرع يعالج بالأدوية.

رحلة إلى الرياض

لم أكن أعلم أفي حلم كنت أم في يقظة حين دعاني أخي الحبيب محمد لصحبته إلى الرياض، في ذلك الصيف ١٣٨٤هـ توجه كثير من شباب بلدنا إلى الرياض؛ كانوا سمعوا عن انتقال الوزارات من جدة إليها، وأنها بحاجة إلى موظفين، كنت قد أنهيت السنة الثانية المتوسطة سنة ١٣٨٤هـ، طرت فرحًا بدعوته؛ ولكن الحسرة أنشبت أظفارها؛ إذ كيف أصاحبه وأنا مكلف كل يوم حصاد البرسيم لمواشي الدار، في هذه اللحظة جاء الفرج من حيث لا أحتسب، كان صديقي وزميلي محمد الجبرين حاضرًا، فقطع حجتي وأزال همي، قال أنا مستعد للحصاد فاذهبْ، لم تكن المرة الأولى التي يبادر بشهامته ويفرج كربي، لا أنسى يومًا صحوت من نومي متأخرًا، وكان عليّ شراء الخبز كل صباح، كنت كل يوم أبادر بعد صلاة الفجر بالذهاب إلى فرن (أبويحيى) إلا في ذلك اليوم، جريت نحو المخبز، دخلت وكان

مكتظًا بالناس ينتظرون دورهم، وقفت مع الواقفين لا حول لي ولا قوة، وفي تلك اللحظة كان محمد الجبرين يتلقف أرغفته وحانت منه التفاتة فرآني، أدرك ما بي، فقال فورًا كم رغيفًا تريد؟ تلفظت بالرقم فطالب الفران أن يزيد نصيبه من الأرغفة، تعالت همهمات الاحتجاج؛ ولكنه لم يلتفت إليها، وأنقذني مما كنت فيه. وبعد أيام راح أخي رشيد رحمه الله يقصّ عليّ بشيء من الفخر كيف أنّ أبا يحيى تعجب من بديهتي وحسن تصرفي حين كلفت محمد الجبرين أن يشتري لي الخبز، سكت ولم أشأ أن أفسد عليه سعادته، فلم أقل إنها مبادرة محمد الجبرين وإنها نباهته وحسن تصرفه.

وكانت الرحلة إلى الرياض، لم تكن رحلة من مكان إلى مكان، بل من عالم إلى عالم مختلف يملأ بالدهشة والعجب، كانت دهشتي أضعاف دهشتي يوم رأيت عنيزة أول مرة، هنا في الرياض شوارع مسفلتة وبيوت عالية وأسواق كثيرة وسيارات لا حصر لها، كان من أطول الشوارع وأهمها شارع البطحا الذي يمتد من جنوب الرياض إلى شماله حتى يتقاطع مع شارع آخر

حيث جُعل في هذا التقاطع دوّارٌ اسمه (دوار سميراميس)، لأول مرة أرى دوّارًا وعلمت بعد أنه سمي لجواره فندق سميراميس، ولم أكن أعرف ما الفندق ولكن عرفت بعد ذلك، إذ ما في ذهني من القراءات كان لفظ الخان، إذن الفندق خان أو نُزُل ينزل فيه الموسرون الغرباء، أما أمثالنا أنا وأخي فليس بمقدورنا ذلك، وكان العرف منذ القِدم أن القادم ينزل عند أحد السكان من أهل بلده، خاصة العزاب منهم الذين يرحبون بالقادم ويأنسون به، نزلنا في بيت يسكنه خالد الدحيم ومن معه.

كان الحر شديدًا في الرياض ويزيد من حرارته كثرة سياراته وضيق بيوته الشعبية، لم تكن المهفّة[١] التي تروح عنا في بلدنا بمنقذة هنا؛ ولكن الناس يفثؤون سورة هذا الحر بآلة عجيبة تسمى المروحة تعمل بالكهرباء، توضع في المجلس حيث يجلس الناس فإذا

---

(١) مُسفّة كالورقة من خوص قلوب النخل يزين بعضها باللون الأحمر والأخضر، وتشد بنصاب من جريد النخل.

أعملت دارت فلقاتها الثلاث دافعة نسيمًا مريحًا ومن شأنها أنها تلتفت بهدوء وتؤدة ذات اليمين وذات الشمال فينال الهواء الجالسين جميعًا.

وفي يوم كنت راجعًا مع بعض الشباب إلى بيت خالد حيث كان تجمعٌ للغداء، سرنا طويلًا إلى أن وصلنا إلى البيت وجلست مع الناس وانتظرت أن تكافح المروحة ما أحسه من حرارة وضعف ورآني أخي، أدرك بثاقب بصيرته أنني أصبت بضربة شمس، فبادر وبعث من جلب قالب ثلج وطلب مني أن أستلقي على ظهري ووضع القالب على جبيني حتى تململت منه ولكنه كان مفيدًا.

كان الشباب الوافدون إلى الرياض في ذلك الصيف يسعون إلى الحصول على وظائف دخلها أحسن من دخل وظائفهم، وكانت الوزارات تعلن عن وجود وظائف، وأن الفوز بها يكون بدخول مسابقة أي اختبار، هو في معظمه أسئلة إدارية ومعلومات عامة جغرافية وتاريخية. وفي كل يوم يتوجه أخي وزملاؤه على الوزارات وكنت أُصحب معهم إذ لا مجال لتركي في

البيت وحدي، كان أول يوم ممتعًا لتعرفي على مبنى الوزارة الضخم وجملة المكاتب العامرة بالموظفين والحركة النشطة هنا وهناك، ولكن كل ذلك بدأ يفقد ألقه، وبدأت نفسي تحس السأم من ذلك، وفي يوم كان أمري موكلًا به الأستاذ سليمان النويصر فكنت أتابعه كظله أرافقه من مكتب إلى مكتب نصعد درجًا وننزل أخرى، ولم يكن يراقبني لثقته الشديدة بملازمته، وفي مرة من مرات الصعود تباطأت بعض التباطؤ حتى غبت عن ناظره فنكصت ووليت نحو بوابة الوزارة.

رأيت أمام بوابة الوزارة سيارة أجرة (تاكسي) فأشرت إلى صاحبها إشارة الركاب العابرين (الخزان)، فقال لا، تريد طلبًا خصوصيًّا؟ قلت: لا، لأن القيمة كما أعلم باهضة جدًّا فهي ريالان، وهي ما جعلت صاحب السيارة يتربص طويلًا حتى يظفر براكب، وبخاصة أن وسط النهار تقل فيه حركة الانتقال. كان الناس العابرون في الرياض يقفون على الشوارع فتمر بهم سيارات الأجرة، وما أكثرها فيركب فيها من يشاء، ويدفع كل راكب عند نزوله ربع ريال، ولم يكن يركب بعض

الناس أيّ سيارة أجرة تمر به بل ربما تخير لونًا معينًا ولم تكن سيارات الأجرة في ذلك الوقت موحدة اللون.

تركت صاحب سيارة الأجرة، ومضيت ماشيًا باتجاه البطحا، فقد أدركت أن لن أنقل إلى بغيتي في شارع الخزان بربع ريال، مضيت لا ألوي على شيء حتى وصلت إلى شارع الخزان الذي ينشعب من شارع البطحا، واصلت سيري حتى وصلت العمارة التي فيها شقة إبراهيم ابن خالي محمد ومعه أخوه عليّ أخي من الرضاعة. أعرف العمارة لتميزها بشرفات صغيرة بارزة ممتدة نحو الشارع كأكف المتسولين. وأما الشقة الصغيرة فكانت مدهشة نظيفة، وكان أغرب شيء يحدث لي عند دخولها تغير الاتجاهات فلا يعود الشرق شرقًا ولا الغرب غربًا، وكنت أعجب حين يصفون للصلاة في اتجاه يخالف ما في ذهني. دققت الجرس ففتح أخي علي الباب وأدخلني من غير سؤال أو دهشة من قدومي المفاجئ، لم يكن الناس في ذلك الزمان يدهشون لطرق أي طارق، دخلت إلى المجلس، ومضى هو إلى المطبخ يكمل غسل الأواني، ربما كانت أواني

العشاء والإفطار، أما أنا فأحسست خدرًا بعد مسيري، فتناولت كرسيًا من كراسي الطعام وجعلت مسند ظهره وسادة.

حين أيقظني عليّ بعد الظهر لاحظت أنه استبدل بالكرسي وسادة وثيرة، وجاء إبراهيم من عمله، فلما رآني استقبلني بحفاوة، ولم يدهش لوجودي، وطلب منا أنا وعليّ أن نصحبه، قال إنا معزومين على الغداء، لا أعلم كيف كانت هيأتي ولا نظافة ملابسي، ولكن ذلك لم يلفت انتباهه، ولم يكن مدعاة حرج أن أصحبهما، مضينا معه في سيارته المرسيدس وكانت أول سيارة مرسيدس أركبها، فخمة نظيفة، مضى بنا إلى الجنوب الغربي من الرياض في طريق منحدرة أدتنا إلى مزرعة يتوسطها بيت من طابقين مشيد بالإسمنت علمت بعد أنه يسمى (فلة).

عدنا بعد الغداء آخر العصر قبيل الغروب وصادفنا أمام العمارة أحد الأقارب جاء زائرًا، لم يشأ إبراهيم أن يضيفه في هذا الوقت في الشقة فاقترح القيام بنزهة للبر، واشترى لنا مياهًا غازية، ولما كنا خارج

الرياض إلى جوار بعض الكثبان الرملية ترجلنا وتسلقنا الكثيب وهناك جلسنا نستمتع بنسيم البر وبشرب المثلجات حتى غابت الشمس وسمعنا الأذان من بعيد، فأقيمت الصلاة وصلينا، وبعد الصلاة عدنا إلى الرياض، وأوصلني ابن خالي إلى حيث كنت أسكن مع أخي الذي لم يكن موجودًا في ذلك الوقت، وجدت وافدًا جديدًا من البلد من أقارب خالد الدحيم يقال له عبدالرحمن البراهيم، ويبدو أنه قد زار الرياض من قبل، وعلم أني آتي لأول مرة فاقترح أن نخرج للتمشية في شارع الوزير[١]، مشينا من حي (العود) إلى شارع الوزير، وكان من أشهر الشوارع التجارية، ويضج بالحياة في الليل متاجره ومطاعمه، كانت الأنوار متلألئة في ذلك الشارع المدهش، مشينا فيه، لم نترك مكانًا لم نلق عليه نظرة، ومن أعجب الأمور ما رأيته في جوار بوابة أحد المطاعم، قفص من الحديد فيه نار ملتهبة وأمامها سَفّود[٢]

---

(١) الوزير هو فيصل بن عبدالعزيز سمي الشارع باسمه حين كان وزيرًا فلما صار ملكًا صار الشارع (شارع الملك فيصل).

(٢) السفود سيخ من الحديد، جاء في مختار الصحاح للرازي "السَّفُّودُ بِوَزْنِ

أسفله مركوز في صينية واسعة وأعلاه مثبت بما يمنعه من الميلان وكان السفود مثقلًا بما طعنه من طبقات قديد الهبر والشحم، وكان اللحم على هيأة مخروط مقلوب والطباخ أمامه يدير المخروط كل حين لتصلي النار جوانب المخروط، وكان إذا اطمأن إلى استواء اللحم حزّ بسكين طويلة حادة ما استوى منه فتساقط على الصينية وما يزال الشحم يسقي اللحم بالدهن وتنبعث منه مع الحرارة رائحة تسيل اللعاب، مضينا عن ذلك، فلسنا نملك ثمنه، وعلمت بعد بأنه يسمى (شاورما).

لم أر أخي في تلك الليلة فنمنا أنا وعبدالرحمن في السطح حيث يكون الجو أميل للبرودة من وسط الدار، وفي الصباح رأيت أخي، وكان مكفهر الوجه غاضبًا، وأغلظ القول لي وخوفني من أصحاب التكاسي أن أركب معهم وحدي. لم أكن أعلم أن ما فعلته سيكون له ما كان من عقبات، كانت غفلة ما بعدها غفلة، وأعلم أن

التَّنُّورِ الْحَدِيدَةُ الَّتِي يُشْوَى بِهَا اللَّحْمُ".

لو لم يلتمس العذر لي لكان غضبه فوق ما رأيته وكنت مستحقًا لأكثر من ذلك الغضب.

عرفت أن ما فعلته أحدث إرباكًا واضطرابًا، إذ انتبه الأستاذ سليمان النويصر بعد دخوله إلى المكتب الذي قصده أنني لست معه، تلفت يمنة ويسرة وعاد من حيث جاء، نزل على الدرج الذي صعِد عليه، فلم يرني، وقدّر أني عدت إلى حيث كنا قبل فمضى هناك، سأل عني فلم يظفر بجواب، ساوره القلق وتملكته الحيرة، ومضى إلى أخي وغيره من الزملاء، أبلغهم باختفائي، ودبت حركة نشطة للبحث عني في مكاتب الوزارة ودهاليزها وممراتها ودورات المياه فيها، ثم خطر بالبال أني خرجت من باب الوزارة، ذهب من ذهب إلى هنالك ولحسن الحظ أن صاحب سيارة الأجرة ما زال متربصًا، سألوه أرأيت ولدًا وأعطوه بعض صفاتي، فقال لهم نعم رأيته وسألني إن كنت ذاهبًا إلى شارع الخزان، وقال لهم إنه ذهب ماشيًا باتجاه البطحاء. وبهذا الخبر فُزِّع عن أخي فقد علم أين اتجهت، ولو أنه تبعني وجلدني جلد البغال لكان على حقّ؛ ولكن ذلك ليس من طبعه وما

رأيته ضرب أحدًا من أبنائه قط، وأما أنا فلم يضربني سوى مرة واحدة، وأحسب أنها ليست عقابًا لي، دخل علينا ذات يوم وكنت في حالة نزق وإثارة لمن حولي أستحق بها العقاب، رأيته ينهال علي ضربًا، وأظنه جاء في الأصل من الشارع مغضبًا فأفرغ غضبه عليّ، أدركت ذلك في نفسي فلم أحفظ عليه. ليس كأخي أحد في رحمته وحنانه وكرمه ورعاية من حوله.

وفي يوم اصطحبني أخي في جولة كان منها أن مررنا على مصور مشهور هو المصور عبدالكريم هكذا كتبت لوحة كبيرة على محله بخط رقعة. وكانت صوره متميزة بإتقانها ومن أمره أنه يحتفظ بلدينة الصورة حتى إذا أراد صاحبها نسخًا أخرى عاد إليه فطبع له ما يشاء. ثم مضينا إلى حلاق جلس أخي إليه ليحلق، أما أنا فجلست أنتظر فراغه، قلبت مجلات أمامي، ثم نهضت اتنقل بين جدران المحلّ وأتفحص ما علق عليها، فما تركت معلقة إلا تحسستها، وربما رفعتها لأنظر ما خلفها، فلما خرجنا أنكر أخي ما فعلت؛ ولكنه لم يرد أن يبين استياءه هو مني، فقال إن الحلاق يقول: هذا الولد غير مؤدب.

رحلة إلى المشروع

رأى الشباب أن من حقهم بعد جولة من المسابقات، فاز فيها من فاز وخسر من خسر، رأوا أن يكافئوا أنفسهم بشيء من الترفيه فكان الاختيار أن يزوروا المشروع الزراعي في الخرج، اشتهر هذا المشروع بين الناس بجمال تخطيطه؛ فهو غابة من الأشجار الجميلة المنسقة على بساط أخضر من النباتات الندية، وكان من شأن من يرتاده أن ينعم بجمال مناظره وباعتدال جوه، وهو مشروع لإنتاج الألبان وتعليبها طازجة تعليبًا صحيًّا، وصار هذا المشروع قبلة الناس يختلفون إليه متى سنحت الفرصة وأسعفتهم، كان متَنزّه أهل الرياض عوائل وشبابًا، وكانت جنباته مقسمة بأسيجة من الأشجار التي تواري من يكون خلفها، فنعمت العائلات إذ تدخل كل عائلة في مربع فلا يشرف عليها أحد بعد.

في الرياض توجهنا إلى محطة سيارات النقل

محطة سيارات الأجرة واشترط أحد الشباب أن يكون ما نستأجره فيه جهاز (البيكب) وهو جهاز يذيع الأغاني المسجلة على أقراص من اللدائن الصُّلبة تدعى أسطوانة، فإذا لقم واحدة منها بدأ يصدح بصوت المطرب الشعبي حجاب أو سلامة العبدالله أو خلف بن هذال الذي كنت أطرب وأعجب لأغنيته الفصيحة المليئة بألوان بديعية من الجناس، وكان إيقاع الغناء سريعًا تدهشك قدرته على الأداء المتواصل المنضبط، ومطلع أغنيته التي افتتنت بها: (يا حبيبي ترى القلب بعدك سرح)، ويبدو أن الأغنية صارت فلكلورًا شعبيًّا فغناها غير واحد منهم علي عبدالستار ومنهم مشاعل.

حين وصنا المشروع وضعنا أمتعتنا في أحد المربعات المخصصة للعزاب ثم مضينا إلى مشروع إنتاج الألبان، لأول مرة أرى الآلة تحلب البقرة في يسر وسهولة، رحم الله أمي كم عانت من حلب البقرة، واعتقال[1] الغنم، وكم واصلت مراحل إعداد اللبن

(١) أي وضع رِجل الشاة أو العنز بين ساق الحالب وفخذه، ليتبين الضرع

وفصل الزبد منه. وهنا آلة ذات أقماع تولج فيها الحلمات وتحلب بالتزامن حتى يفرغ ما في البقرة من حليب، والحليب يمضي إلى خزانات وآلات بسترة وتعقيم ومنه ما يعبأ حليبًا طازجًا في علب ورقية خاصة، ومنه ما يمخض فيحول إلى لبن ويعبأ في العلب.

أمضينا يومنا ذلك في التجول في المشروع، ثم عدنا إلى مربعنا، وانصرف بعض الشباب لإعداد القهوة والشاي والغداء، وبعضهم جلسوا متقابلين يلعبون البلوت، وكنت أسعد بمراقبتهم؛ إذ لم أكن أحسن هذه اللعبة. ولَمّا أن قضينا سحابة نهارنا في هذا المشروع الرائع جمعنا أمتعتنا، وكانت الشمس قد مالت نحو الغروب، مضينا قافلين نحو الرياض.

ولتكف عن الحركة.

في القطار إلى الشرقية

كان شيئًا كالحلم حين هيأ أخي لي هذه الرحلة بالقطار معه هو وصحبه، أول مرة أشاهد القطار وأركبه، وكنت قبل أسمع به وأقرأ، ولكني اليوم فيه أجلس على مقعد من مقاعده، كم هو ضخم القطار وعرباته المتصل بعضها ببعض، رأيته كيف ينهب الطريق نهبًا منزلقًا على قضبانه الحديدية، وحانت ساعة الغداء فمضينا إلى عربة خصصت لذلك عامرة بالموائد والكراسي جلسنا وزودنا بألوان من الطعام كان أعجبها إلي وألذّها أرغفة مربعة، نعم أول مرة أرى رغيفًا مربعًا جاسي الحوافّ ليّن المتن، حتى تحسبه من الإسفنج، ومضت سنوات عرفت أن هذا يسمى (توست).

وفي الدمام عدد من أهالي بلدنا المذنب، منهم آل الجمل وآل القويفلي، فرحوا بمقدمنا فرحًا عظيمًا، وأقاموا لنا المآدب، وفي أحد هذه البيوت رأيت صندوقًا

واجهته من الزجاج وله مفاتيح ذكرتني بالرادو القديم بوش. أما هذا فعلمت أنه التلفزيون، وفيه ترى صورة المذيع متحركة يخاطبك كأنه يراك بعد أن كنت تسمعه في المذياع فلا تعلم كيف يكون شكله، ولكن أعجب شيء هذه القصص التي تمثلها حيوانات مرسومة باليد بلا شك ولكنها تتطارد وتجري كما يفعل الأحياء، وإن ذلك لغز عجيب، لم أر أحدًا من المتحدثين عناه أن ينبه إلى ذلك، أو يبين اختلاف هذا عن حركة البشر أو الحيوانات الطبيعية، ومضت سنوات حتى عرفت كيف ترسم الصور المتحركة فكل حركة لها صورة حتى تتجمع جملة الصور المؤلفة للحركة وتلصق متجاورة ثم تمر على البصر بسرعة لا تتيح للعين إدراك الصور المفردة الثابتة بل تحس انتقال الحيوان من صورة إلى أخرى انتقالًا كأنه حيّ أمامك.

وكان منا زيارة إلى مدينة الخبر الحديثة الجميلة بتنظيمها ومتاجرها الجميلة، ومررنا بمدينة الثقبة، وأما في مدينة الظهران فتهيأ لنا هناك أن نزور أرامكو ومشروعاتها الضخمة الهائلة.

وخصص يوم في هذه الرحلة لزيارة الأحساء وعيونها الجارية، وكان من أعجبها عين أم نجم بمياهها المعدنية الحارة التي يقال إن الناس يرتادونها للاستشفاء ويروون أعاجيب من ذلك.

عدنا إلى الرياض وكانت العطلة الصيفية آذنت بالانتهاء، وآن لنا أن نعود على بلدنا، لم ينس أخي أننا تركنا خلفنا في المذنب من بادر بالعمل بدلًا مني وأنه يستحق مني هدية، وأما أنا فقد أنسيت أمره وما خطر ببالي أن أهديه شيئًا، وما كنت لأفعل لولا تنبيه أخي، ولولا أنه دفع لي مبلغًا من المال لأفعل ذلك، ولما لم يكن لي خبرة بالتسوق أو اختيار الهدايا استعنت بابن خالي عليّ، تجولنا معًا ووقع الاختيار على قلم رائع ليس كأي قلم رآه من قبل كالقلم السعودي أو الباركر.

وحين عدنا مضيت إلى زميلي محمد الجبرين وشكرته وقدمت له الهدية، وسلمته أيضًا روايتين كنت اشتريتهما وقرأتهما، هما (ثمن التضحية)، و(ومرت الأيام) لحامد دمنهوري، قلت اقرأهما ثم أعدهما، ولست أعلم أقرأهما أم لا؛ ولكن المؤكد أنه لما يعدهما

حتى الآن.

وبعد مدة من عودتنا رأيت أخي يستأذن من والدي لينتقل إلى الرياض ليزاول عمله الجديد، وسمعت والدي يرفض طلبه؛ ولكن جاء يوم سافر فيه أخي إلى الرياض، ولا أعلم أراجع والده مرة أخرى أم لا. وأما أنا فانتقلت إلى الرياض بعد عام للالتحاق بالمدرسة الثانوية؛ إذ لم يكن في المذنب مدرسة ثانوية، وعلى طلابه أن يدرسوا في عنيزة أو بريدة، ولم يكن هذا متاحًا لي، فليس لي أحد هناك، ولا بد من أن أكون مع أخي في الرياض، ولذا انتقلت وحرصت أن أتجنب استئذان والدي خوف أن يرفض طلبي، وحين كنت في الرياض سألني أخي هل استأذنت والدك؟ قلت له: لا، فسكت ولم يعلق.

مدرسة اليمامة

لم تكن بلدنا ذات محطة لنقل الركاب إلى الرياض، فقد كان النقل اليومي إلى عنيزة وأحيانًا إلى بريدة، ولكن طريق القصيم الرياض يمر ببلدنا، وكان لأخي فضل جعله كذلك؛ إذ كان المقرر أن يكون غربًا بعيدًا عنها، تتوقف السيارات للتزود بالوقود فكانت فرصة من يريد الذهاب إلى الرياض أن يصاحب سائقها، وهكذا فعلت إذ أشرت إلى صاحب شاحنة ووافق أن أصاحبه بأجر لا أذكر مقداره، كما أني لا أذكر أوحدي كنت أم معي محمد الجبرين والغالب أنه معي ولكني سألته منذ أيام وأنا أزوره في بيته عن هذا فنفى ذلك، كان الوقت عصرًا وسارت بنا السيارة متجاوزين المربّع فالعمار وقرى السر المختلفة حتى عسيلة بعد مغيب الشمس فتوقفنا لصلاة المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا، وفاجأنا السائق بإنزاله مطبقية ملئت بمطازيز ودعانا للعشاء معه، فأكلنا ولا أعلم أطيبة كانت أم الجوع

طيبها، أجهزنا عليها رغم لذعة الفُلفُل فيها. ومضينا في طريقنا حتى تجاوزنا ضرما نحو أصعب عقبة في الطريق على جبل طويق، ولكن ما أن أشرفنا على سفح الجبل حتى تبينت الرياض لنا تتلألأ بالأنوار كعروس اسْبَكَرّت[١] بأجمل زينة وحلي، كان منظرًا مبهجًا مهيبًا. وصلنا آخر الأمر محطة السيارات جوار دوّار سلام، ولعلنا بتنا بقية ليلتنا في القهوة الشعبية هناك، حتى إذا كان الصباح نقلنا إلى حيّ العود، ويبدو أنه يعرف البيت الذي يسكنه العزاب من أهل المذنب. وفي هذا البيت يسكن عدد من الشباب منهم موظفون ومنهم ساعون إلى التوظف، كان أخي محمد منهم بل من أهم سكان ذلك البيت، فقد اشترى من ماله الخاص سجادة كبيرة للمجلس، ولم أكن أعلم أنها له حتى انتقلنا مستقلين ببيت خاص بنا، وفي البيت سليمان الجبرين صديق أخي وأخو زميلي محمد الجبرين.

---

(١) جاء في معجم الصحاح للجوهري "اسْبِكَرَّت الجاريةُ: استقامت واعْتَدلت".

بعد يوم أو يومين استأذن أخي من عمله ليصحبنا للتسجيل في مدرسة اليمامة، وهناك تفحص من كُلف التسجيلَ أوراقنا ثم ردّها إلينا رافضًا تسجيلنا، لم؟ كانت أعمارنا المسجلة في وثيقة التخرج أكبر من الأعمار المشترطة للقبول، وكانت المدرسة في ذلك العام استقبلت عددًا هائلًا من الطلاب، تبين لي ذلك بعدُ حين رأيت أن عدد فصول السنة الأولى عشرة. أما كيف كانت أعمارنا كبيرة فلذلك قصة. كان على كل طالب قبيل الاختبار النهائي أن يملأ استمارة التخرج بجملة من المعلومات، منها تاريخ الميلاد، ولما لم يكن لدينا وثيقة تصدق تاريخ الميلاد أرسلنا وكيل المدرسة عبدالعزيز العقيلي رحمه الله إلى مكتب الأحوال المدنية بعنيزة، وهناك أعطي كل واحد استمارة يكتب فيها اسمه، ثم طلب منا مراجعة طبيب الأسنان في مستشفى عنيزة، وهناك قابل الطبيب كل واحد منا وراح يفتح أفواهنا ليقدر أعمارنا ذكرني بسوق الماشية حين

يكشف المشتري عن أسنان الطَّرَف[١] ليعرف سنه، أحسست مهانة كبيرة وهو يفِرّ أسناني كأني خروف، وربما أثرت هيأة الطالب وحجمه في حكم الطبيب، فلعله صنفني في الكبار لما ظهر من سمتي وهدوئي ولبسي الغترة على رأسي، كانت المسألة أن الصغار سيعطون شهادة ميلاد فقط، أما الكبار فسيعودون بدفتر التابعية. انتهينا من الطبيب وأخذ أحدنا الأوراق ومضينا لتسليمها لمكتب الأحوال، وكان الدوام قد أوشك أن ينتهي، فوعدنا أن نتسلم الوثائق في الغد. وفي الغد فرحت أن كنت من ذوي الدفاتر ففي ذلك من الوجاهة ما فيها.

رفض المدرسة أصابنا بالذهول والحيرة، أما أخي رجل الأزمات فلم يستسلم لهذا الأمر، إذ انطلق بنا إلى وزارة المعارف، إلى وكيلها إبراهيم الحجي، كان أخي يرجو أن يستطيع مدير مكتبه طويرش البراهيم أن يشرح للوكيل أمرنا، وأنا جئنا من مكان بعيد ليس فيه مدرسة،

(١) الطَّرَف الواحد من الشاء أو المعزى.

ولا شك أنه فعل، ولكنه نظر إلى الوثيقتين أمامه ونظر فرأى محمد الجبرين نحيلًا طويلًا فقال والله هذا يصلح أن يكون معلمًا، توجها إلى معهد المعلمين، ودارت بنا الدوائر مرة أخرى وأُسقط في أيدينا، وخرجنا من مكتبه، ولكن أخي المتصف بالصبر والأناة والإصرار ومعالجة الأمور بالحكمة خطرت في باله فكرة ذكية، وهي مراجعة إدارة الامتحانات، لأنه يعلم العلم كله أن تاريخ هذه الوثيقة لا ينسجم مع وثيقة الشهادة الابتدائية، فهو نفسه من حدده في ذلك الوقت، وفي إدارة الامتحانات كان يعمل صديق أخي صالح الجمل رحمه الله، رجل من أنبل الرجال وأعظمهم خلقًا وأدبًا، ذهب إليه أخي وأطلعه على الخلل الواقع في تاريخ الميلاد، وأطلع مدير إدارة الامتحانات على ذلك، فانشرح صدره للأمر، واعتمد تصحيح تاريخ الميلاد بما يجعل الوثيقتين متلائمتين تلاؤمًا صحيحًا، ومضى أخي بنا مرة أخرى إلى المدرسة وقبلنا والحمد لله عام ١٣٨٦هـ. الموافقه ١٩٦٦م.

بدأنا الدراسة بعد مدة ليست طويلة، كانت

فصول السنة الأولى عشرة، وكنت في الفصل الأول منها، أما محمد الجبرين فلا أعلم في أي فصل هو، ويبدو أن المدرسة تعاني شحًّا في المدرسين، يغيب أستاذ فيكلف من لا خبرة له بالدرس، وكان هذا مدعاة لشغب الطلاب وعبثهم حتى اضطر هذا المعلم إلى أخذ أسماء من تبين له شغبهم سأل أحدهم عن اسمه فزعم أنه حسن الواو، وكذلك فعل آخر، أما أنا فسألني فجاء على لساني اسم ثلاثي الابن والأب والجد، وبعد ذلك بيوم دخل زميلي الداوود ومعه آخر ليس من فصلنا، قال لي الداوود ما الاسم الذي قلته للمدرس؟ فرددت الاسم، ولمّا أنسه في ذلك الوقت، فإذا بالطالب الغريب يمسك بتلابيبي ويقول: أنا هو، أخذوني إلى الإدارة، وحققوا معي، ولولا شهادة المعلم الذي كان يدرسنا في الوقت نفسه ما نجوت، كان فصلنا خليطًا من أبناء الوجهاء ومن أبناء عامة الشعب، أذكر منهم ابن الناهض وابن السبهان، ومنهم من ألفته وأنست إليه مثل أحمد بن إبراهيم العمود ومحمد بن عبدالله المشرف وعبدالله السعدون، وعبدالله سالمين بن محفوظ، ومحمد

صالح بالبيد.

كانت السنة الأولى في الثانوية عامة تدرس فيها علوم وآداب، وبعد النجاح يقسم الطلاب قسمين: قسم علمي وآخر أدبي، فمن ثقلت درجاته صنف في العلمي، ومن خفت درجاته صنف في الأدبي، ولمن أراد من القسم العلمي الانحياز للقسم الأدبي طلب ذلك، ولا شكّ أن من الطلاب من توجه إلى القسم الأدبي رغبة فيه، وكنت صنفت في القسم العلمي فلم أسع إلى الانحياز؛ لأني علمت أن القسم الأدبي فيه مقررات تاريخية وجغرافية وفيه علم النفس وعلم الاجتماع، وهي علوم لست إليها بميال، وأما علوم العربية التي تهمني فتدرس في القسم العلمي أيضًا.

انتهت السنة الأولى، وبعد الاختبار لم أسارع لمعرفة النتيجة في يوم خروج النتائج وإعلانها، كأني لا أريد أن أعرف أو لا أهتم بذلك، ولكني آخر الأمر وجدتني أذهب بتثاقل إلى المدرسة لا لأتلقى نتيجتي بل لأرى أخي الحبيب بين جموع الطلاب، جاء يتلقى نتيجتي هو نفسه.

السكن في بيوت متعددة

أمضينا في بيت العزاب أسبوعين أو أكثر، لم تكن الحياة مريحة في البيت وبدأت شجارات بيني وبين زميلي محمد الجبرين، وأدرك أخي بحصافته ورهافة حسه أن البيئة غير ملائمة لي، ولم يكن بيده حيلة، ولكن الفرج جاء بمقدم عبدالرحمن الخميس هو وزوجته أختي سارة، فكانت فرصة أن نكون أسرة، وهكذا نجونا من بيت العزاب واستأجرنا بيتًا صغيرًا ما لبثنا مدة حتى غادرناه إلى ما هو أوسع، وفي السنة التي بعدها انضم إلينا أخي عبدالله هو وعائلته فانتقلنا إلى بيت آخر في منطقة الشميسي. مكثنا في هذا البيت مدة، وكنت أرى أخي يتنقل ومعه كيس لا أعلم ما يحتوي حتى جاء يوم علمت أنه قد اشْتُري بيت في حي أم سليم غير بعيد من دوار أم سليم الذي تلتقي فيه شوارع منها شارع الشميسي الجديد وشارع علي بن أبي طالب. كان الكيس ثمن البيت.

عاشت الأسر الثلاث وأنا معهم في هذا البيت، كل أسرة في غرفة، أما أعمال البيت وتناول الطعام، واستقبال الضيوف فأمر مشترك. وبعد مدة غادرت أسرة عبدالرحمن الخميس إلى المذنب بعد انتهاء دراسته في المعهد التكميلي.

وفي يوم زارنا ابن خالي إبراهيم، وكنت أنا وهو منفردين، وشاهد ما علقته على الحائط من رسوم، وكان مما جرى الحديث فيه آمال المستقبل، فقلت له إني سآذن لأبنائي أن يستقلوا في بيوت تخصهم، فانتهز الفرصة وسألني: ألا تمانع أن يستقل أخوك عبدالله ببيت يخصه؟ قلت له: سيكون لي بالبيت بيتان، وكنت أقلد في قولي هذا أحد أصدقاء أخي محمد، وهو يتحدث عن أبنائه.

يبدو أن إبراهيم لم يلبث طويلًا حتى أبلغ أخي عبدالله بما سمع مني؛ إذ رأيت أخي عبدالله يفاتح أخانا محمدًا أمامي برغبته في الاستقلال، نظرت إلى وجه أخي محمد رأيته حزينًا، قال لأخيه بصوت هادئ: ولكن هذا قد يؤثر على أخيك يقصدني، قال عبدالله بثقة: لا، هو

يعرف ويقدر.

وافق أخي محمد على طلبه موافقة مشوبة بالكدر، وهو يرجو له في أعماقه التوفيق.

وهكذا سارع أخي عبدالله إلى استئجار بيت وتأثيثه بقدر الطاقة، وانتقل إليه، ولم تكن الرغبة في الاستقلال جديدة؛ إذ عمد أخي عبدالله حين كنا في المذنب بُعيد زواجه بمدة يسيرة إلى استئجار بيت واستقلاله فيه من غير أن يستأذن أو يعلم أحدًا من أفراد البيت الكبير، فلما افتُقد وبُحث عنه وعُلم به كان ذلك كالصاعقة على والدتنا التي انخرطت في موجة بكاء متصل، وتوسلت بأخيها خالي محمد وزوجته أن يقنعا الزوجين الشابين بالعودة إلى البيت الكبير، فعادا وتعلّما أن قرار الاستقلال عن الأسرة ليس بأمر سهل.

عرض عليّ أخي عبدالله أن أصاحبه إن أردت، كنت أعلم أنه عرض مجاملة، وكنت أعلم أنَّ أخي محمدًا لن يفرط بي، فأنا منه أعز أبنائه، وهكذا كان طوال الوقت، تنالني من رعايته واهتمامه ما يفوق أبناءه حتى بعد أن كبرت وصارت لي أسرة مستقلة. وما كنت

لأفارقه في ذلك الوقت، ولا لأفارق أولاده؛ فهم أخوتي الصغار أحبتي. ولم أغادر هذا البيت إلا مبتعثًا إلى القاهرة للدراسات العليا.

الانتظام في الجامعة

كان علينا أن نعبئ استمارة في نهاية السنة الثالثة كما عبأنا في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة، ومن فقرات هذه الاستمارة اسم الكلية الجامعية التي ينوي الطالب الانتظام فيها، وكان زارنا مندوب عن كلية البترول والمعادن شرح لنا ميزات الكلية، وأخذنا مرة إلى كلية الصيدلة وكلية الزراعة لنعرف عن الكلية، وزادني حبًّا لكلية الآداب صالح الزعير أحد أبناء بلدنا الذي كان يحدثني عنها بما شدني إليها، ولذلك كتبت في الاستمارة بثقة وعزم (كلية الآداب). ولقي قراري هذا عجبًا؛ فهذا الأستاذ عبدالرحمن الميمان الرجل النحيف الدقيق القسمات الذكي النظرات البارع في علوم العربية، يرفع وثيقتي وينظر إلى اسم الكلية التي اخترتها فيجده (كلية الآداب)، فيتعجب من اختياري؛ فكيف يختار طالب قسم علمي تخرج بنسبة عالية كلية الآداب، قال لي: إن كنت اخترت كلية الآداب لسهولتها فاعلم أنها ليست

سهلة. ابتسمت وقلت باقتضاب: أعرف.

حين عُلم اختياري ناله استياء أقاربي وغرابة بعض زملائي، فهذا زميلي أحمد العمود يحاول غير مرة ثنيي، وراح يغريني أن نتزامل في كلية واحدة، أما أخي محمد فكتب إليّ من الأردن وكان انتدب في لجنة تعاقد للمعلمات، كتب إليّ يبين أهمية الدراسات العلمية وهوان الدراسات الأدبية، وكان الحق معه؛ فقد كانت الدراسات العلمية لها وجاهة، ودارسها له تقدمة، ومكاسبها أكثر، وأما الأخرى فمسكوت عنها ليس لأهلها كبير حظ، وكنت أكتب إليه مبينًا حبي اللغة العربية وآدابها، وأني قنوع لست أطمع بما وظائفه أكثر راتبًا، وأن من يردِ المال يسلكْ طريق التجارة لا الدراسة، وأحسب أنّ أخي أراد لي الوجاهة، أراد أن أدعى دكتورًا أو مهندسًا. ولما استيأس من رغبتي في كليات الطب أو الهندسة أو العلوم أو الصيدلة كتب إليّ يدعوني للالتحاق بكلية التجارة على الأقل، ولكني لم أستجب، ولكن على كثرة ما ندمت عليه من قراراتي لم أندم على تخيري كلية الآداب. وفي نهاية الأمر كتبت إليه أني

سجلت في كلية الآداب، لا أذكر أنه أجاب عن بلاغي هذا بكتاب؛ ولكنه حين عاد من الأردن كان محملًا بمكتبة مختارة من أهم كتبها: أمالي القالي وذيل الأمالي، والمعجم الوسيط. ولم تكن سعادتي بالمكتبة بقدر سعادتي بقبوله اختياري وتفهمه لرغبتي.

في هذا العام الذي دخلت فيه كلية الآداب قُرر قطع المكافأة عن طلاب الكليات النظرية الآداب والتربية والتجارة، فكان أن ترك بعض الطلاب الدراسة منصرفين إلى تحصيل لقمة العيش، وخاصة من الوافدين إلى الرياض، أما أنا فقد كنت أعتمد على ركن ركين هو أخي محمد، وكنت أعيش منذ جئت إلى الرياض في بيته وبين أولاده، وكان يحوطني برعايته ويرعاني أكثر من أولاده، يفرح لفرحي ويألم لألمي، لا أنسى أنه ذهب إلى المدرسة الثانوية ووقف مع الطلاب ليستمع إلى إعلان اسمي مع الناجحين. ولم تطل مدة القطع تلك فعادت المكافأة وكانت مبلغ ٣٢٥ريالا وربع ريال، وهو مبلغ ساعدني في شراء ما أحتاج إليه من مراجع ومذكرات دراسية.

وفي السنة الأولى كنا نُدرس تاريخ ما قبل الإسلام يدرسنا أستاذان أحدهما أ.د.عبدالرحمن الطيب الأنصاري يدرسنا تاريخ الممالك في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وأما الآخر فعراقي هو د.صبحي أنور رشيد يدرسنا تاريخ مصر والعراق القديم، وعلى الرغم من إحساسي الضياع في تلقي الدروس في الجامعة حاولت أن أعين نفسي، فمضيت إلى المكتبة العامة التي أنشأتها وزارة المعارف، وهي في شارع الوزير (الملك فيصل الآن)، وجدت كتابًا مترجمًا عن الفرنسية بلغة واضحة صحيحة هو كتاب (الشرق الأدنى واليونان القديمة) لأندريه إيمار، قرأت التاريخ المصري الحضاري، ولخصت ما قرأت في كراسة وأريتها لأستاذي لأكسب إعجابه؛ ولكنه اكتفى بالقول إنه ينفع، وتبين لي بعد ذلك أن التاريخ الذي يعنيه هو التاريخ السياسي، إذ أنفق العام وهو يسرد لنا تاريخ الأسر المصرية الحاكمة، وكان يقف إلى المكتب ويركز بصره عليه ثم يبدأ بحديث رتيب ممل، وكم حاولت جاهدًا مدافعة النعاس ففشلت حتى لقد تعمدت أن أجلس قبالته وأجاهد

النعاس؛ ولكني أفشل في كل مرة، وكان علينا أن نكتب بحثًا في كل مقرر، وقررت أن يكون بحثي عن الفن المصري وهكذا قرأت وقرأت، ثم وقعت في يدي مجلة كان فيها تحقيق عن المتحف المصري الفرعوني وكان التحقيق مليئًا بالصور الملونة، فقصصت الصور ولزقتها في البحث الذي أعددته بعد قراءات مكثفة عن الفن المصري ونقده، وكنت فرحًا غاية الفرح بإعجاب أخي بالبحث وبحديثه أمام الناس عنه، وكان يحلّي بحديثه الأشياء مهما قلّ شأنها.

التلفزيون

كان التلفزيون أعجوبة العجائب فُتن كثير من الناس به وأدخلوه في بيوتهم على الرغم من مذمة المتشددين لذلك، كان لنا أقارب لديهم تلفزيون ووالدهم من جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يخرج قبيل كل صلاة ليحث برفق وأناة أصحاب الدكاكين على الإغلاق والتوجه إلى المسجد، زرتهم أنا وخالي ورأينا التلفزيون، كان الناس لعجبهم في تلك الأيام في خلاف فمنهم من يرى التلفزيون من عمل الشيطان، وأما خالي فأنكر ذلك محتجًّا بأنه ينقطع عن العمل لانقطاع الكهرباء.

وأما أنا فكنت أنتهز ليلة الجمعة فأذهب إلى مقهى غير بعيد من البيت لأشاهد البث التلفزيوني، وما أزال هناك حتى ينتهي البث فأعود أدراجي في الشارع الذي جئت منه، وفي تلك الساعة من الليل يكون العسة قد أخذوا أماكنهم، واحد أول الشارع وآخر آخره،

وربما برز من مكمنه بهراوته وخاطبك ليقدر حالك ويطمئن على سلامة مقصدك، وهم لاشك يشيعون جوًّا من الطمأنينة والسلامة.

لاحظ أخي هذا فلم ينكر ذلك مني إنكارًا بل نظر إلى الأمر نظرة الأب الحنون المشفق، وإذا به يزين غرفة الجلوس الصغيرة بجهاز التلفزيون، وإذا بأفراد الأسرة تجتمع وتصطف أمام هذا الجهاز العجيب، صرنا نستمتع بالرسوم المتحركة ونترقب البرامج الأسبوعية، ففي يوم الجمعة لا يفوتنا برنامج الشيخ علي الطنطاوي الذي يجيب فيه على أسئلة المشاهدين وفتاواهم بصوته الرخيم ولهجته السورية المحببة، وأما في رمضان فكان برنامجه على مائدة الإفطار من أروع ما يشاهد، كان له حديث لا يملّ، كانت المصارعة الحرة من أهم البرامج المنتظرة كل أسبوع، وكانت طريقة منير شمّا وصوته الإذاعي القويّ يضفيان عليها سحرًا عجيبًا، حتى إذا ترك العمل في بلادنا راجعًا إلى لندن فقدنا بهجة المصارعة، خاصة حين أوكل التعليق إلى ممثل شعبي هزلي لم يكن جادًّا؛ فغير بمعلق آخر هو عبدالرحمن

الراشد، وكان لا يقل عن منير شمّا جودة تعليق. وكذلك شدّنا المسلسل الأجنبي الهارب The fugitive. بطل المسلسل "ريتشارد كيمبل - Richard Kimble" يتهم خطأً بقتل زوجته. ولا يمضي كثير من الوقت حتى يهرب كيمبل من السجن وينطلق في بحثه عن الحقيقة وجلب المجرم الحقيقي للعدالة محاولًا بذلك إثبات براءته، بينما ينطلق فريق من الشرطة لملاحقته، وفي سنة ١٩٩٣م أنتج فلم مقتبس من هذا المسلسل لقي إقبالًا شديدًا. وأعجبنا بالمسلسل المدبلج (دكتور هو). وهو الدكتور الفضائي ذو عمر المئات من القرون، الذي يسافر في سفينته المتنقلة في الأبعاد المتوازية الواقعية في الفضاء عبر الزمان مع رفقائه البشريين. وشدنا كثيرًا مسلسل الرجل الخفي (The Invisible Man)، هي رواية خيال علمي تدور الرواية حول (غريفين) وهو عالم كرس نفسه لأبحاث البصريات، فاخترع وسيلة لتغيير معامل الانكسار في الجسم إلى معامل الهواء بحيث يمتص ويعكس أي ضوء، وهكذا صار غير مرئي. نجح في التجربة بعد أن طبقها على نفسه، ولكنه أخفق

في النكوص.

أحسن أخي كثيرًا بإدخال التلفزيون فقد أدخل البهجة إلى كل أفراد العائلة وصار عاملًا لاجتماعها وتقاربها وتشاركها.

وكم كانت سعادتي يوم أمكن أمي أن تراني في التلفزيون وأنا أقرأ كلمة طلاب الجامعة في يوم التخرج.

العمرة

حين أفكر في هذه العمرة يستولي علي العجب، كيف فكر فيها أخي، وكيف أقدم عليها، وهل سيارة أخي كانت في غاية الجاهزية لينحشر فيها هذا العدد من الأفراد والسفر مسافات طويلة، في يوم انطلقت السيارة على طريق الحجاز القديم المزدوج، أنا وزوج أختي سارة عبدالرحمن الخميس في المرتبة الأمامية مع أخي الذي يقود السيارة التي لم تكن مزودة بمثبت سرعة كسيارات اليوم، وفي المرتبة الخلفية كانت أختي ومعها أبناؤها محمد ومريم وليلى وامرأة أخي وأبناؤه سليمان وعائشة وخالد ونوال. ومع هذا العدد الغفير من الأطفال لم تنشب بينهم مشادّات أو مشاجرات كان الهدوء تامًّا، انحدرت السيارة نحو الطريق إلى ضرما ثم مرات ثم غربًا نحو الدوادمي وما بعدها، وانطلقنا مسنّدين[١] إلى الحجاز حتى وصلنا إلى الطائف إلى جبل كرا، هناك كان

---

(١) أي مرتفعين وصاعدين.

علينا نحن الرجال أن نغتسل ونلبس ملابس الإحرام، كان في المنطقة حمامات مؤقتة وبراميل مليئة بالماء الساخن يوقد تحتها بالحطب، يعطى كل واحد سطلًا من الماء الدافئ؛ إذ كان الجو باردًا في ذلك الشتاء في ذلك الجبل المرتفع. أما النساء فكن استعددن من الرياض فلا يحتجن سوى الوضوء، لبينا بالعمرة مشترطين، وركبنا السيارة وانحدرنا مع طريق الهدا الشديد الانحدار الكثير المنعطفات حتى أحلّنا إلى طريق مستو تابعنا فيه منطلقين إلى مكة، دخلنا الحرم الفخم بأعمدته وأسقفه العالية، وفي وسطه الكعبة المشرفة، كم من الناس عبر التاريخ طافوا حولها، منظر باهر يحبس الأنفاس، لم يكن الزحام شديدًا؛ ولكنه ليس من الميسور لأي أحد أن يقبل الحجر، أول مرة أزور الحرم وأرى الكعبة بعد أن كنت أقرأ عنها وأرى صورها في الصحف، ورأيت صورتها وأنا صغير في المنظار السحري ذي العدسة المكبرة للصور، كان أشهر هدايا الحجاج للصغار.

لما قضينا الطواف كان المؤذن يرفع الأذان فتوقف الطائفون واصطف الناس لأداء السنة قبل

الفريضة، بعد التسليمة الثانية رأيت طفلًا يقحص[١] منفلتًا نحو الكعبة نحو الحجر ليقبله، كان هذا خالد ابن أخي، عجبت لأمره عجبًا شديدًا، ولما انقضت أعمال عمرتنا انعقد العزم على التوجه إلى جدة، وصلنا إليها عصرًا ووفقنا بالعثور على بيت إيجار لنبيت فيه، كان جوها جوًّا دافئًا معتدلًا في ذلك الوقت، أعجبني تقديم ماء الشرب بقارورة من فخار تهبه برودة مناسبة. بتنا ليلتنا في جدة وفي الصباح تناولنا فطورنا ثم توجهنا إلى المدينة لزيارة مسجد رسول الله، وصلنا وأدركنا صلاة الظهر في المسجد وسلمنا على رسول الله وعلى صاحبيه، راعني الحرم كما راعني الحرم المكي، طول الأعمدة وارتفاع السقوف، كان المحراب وما يليه بعدد من الصفوف عمارته قديمة، تختلف عن التوسعة السعودية في شكل أعمدتها، فالقديمة أعمدتها أسطوانية ملونة تحمل عددًا من القباب الملونة المذهبة باطنها لها أطر مزينة بكتابات بخط الثلث

---

(١) أي ينهض من مكانه بسرعة وخفة.

الرائع. تطوف في الذهن خواطر عن تاريخ طويل لهذا المكان، في محرابه صلى الرسول ﷺ ثم الخلفاء رضوان الله عليهم من بعده، تعاقبت أجيال وأجيال، ووقفت على صعيده أرجل من أمم مختلفة لا حصر لها. وصلينا العصر في المسجد وخرجنا بعد أن دعانا أخي لنركب في السيارة لنواصل رحلتنا إلى القصيم، كلنا جاهز تائق لمواصلة الرحلة سوى زوج أختي أراه في المسجد جالسًا لا يخف للرحيل وطال الانتظار، لم أستطع كتمان ضيقي فحدثت أخي بأمر تأخره وأنه لا يحق له أن يفعل ذلك، أردت أن يحثه على النهوض، ولكنه بحلم وصبر وأناة قال لي: هو يريد الخير، ومن يكن في الحرم لا يسهل عليه مفارقته، ولكن الله شاء فرأيته ينهض ليركب معنا السيارة لننطلق بتوفيق الله إلى القصيم.

معهد الإدارة

من أكثر مؤسسات التعليم توفيقًا بقوة مناهجه وبراعة أساتذته وجودة إدارته، انتدبت إليه الدولة كثيرًا من موظفيها لصقل مواهبهم الإدارية، كان أخي العبقري الإداري بالفطرة أحد من انتظم في دورة معهد الإدارة فأتقن ما تلقاه من علوم على ضخامة الكتب، وكان من لوازم التخرج بحث علمي يكتبه المتدرب.

وكان يوم امتلأت غرفة المجلس في الدور الأعلى من البيت بمجلدات ضخمة كبيرة هي تقارير إحصائية عن ميزانيات الدولة في سنوات متعددة، رأيت أخي عاكفًا بجد وصبر مدهش يتفحص الأرقام ويدون في دفتره ما يقتضيه بحثه منها، وعلمت منه أنه زار كثيرًا من المصالح الحكومية باحثًا عن معطيات بحثه، وبعد مدة غير قليلة رأيت هذه الأرقام تتحول على نحو مدهش إلى بحث رصين عميق عن تطور ميزانية نفقات التعليم، ورأيت هذا البحث بعد ينشر في (علمية) في

عددين منها. وعلمية هي نشرة كانت تصدرها الملحقية الثقافية في سفارة المملكة العربية في بيروت وكان القائم عليها الأستاذ سعد البواردي.

العمل في الصيف

كان الصيف الذي يقع بين سنتين دراسيتين وقتًا ضائعًا من مثلي، إذ لست من الذين يملكون ما يعينهم على السفر داخل البلاد أو خارجها، وليس من سبل لقضاء هذا الوقت قضاءًا مثمرًا، ولكن حدث أن اتجهت بعض الدوائر الحكومية وغير الحكومية إلى إتاحة الفرصة ليعمل الطلاب لديها في الصيف، ولم يكن هذا مطّردًا منظمًا مكفولًا لكل طالب. كان من حسن حظي أن كان خالد الدحيم يعمل في البنك الزراعي، وخالد هذا ليس قريب العائلة فقط بل من أهم أصدقاء أخي محمد، علم برغبتي الشديدة في العمل بعد انتهاء السنة الأولى الجامعية فتوسط لي عند إدارة البنك فوظفت في فرع البنك في بريدة.

في صيف السنة الثانية التمست العمل في غير جهة، منها مصلحة مياه الرياض فلم أوفق، ومنها كهرباء الرياض التي مضيت إلى مقر إدارتها حيث جلس

عند الباب الخارجي الشيخ عبدالعزيز المسند، وكان منتدبًا في ذلك الصيف لإدارتها، تقدمت إليه بطلبي فردني بلطف، وأما البنك الزراعي فكنت سمعت أنهم لا ينوون الاستعانة بطلاب في ذلك الصيف، ولكني بعد أن استيأست أُبلغت عن موافقتهم، وهكذا سافرت إلى بريدة لا ألوي على شيء، إن الصيف من غير مشغلة قاتل.

في صيف السنة الثالثة أرسلت شركة أرامكو مندوبين لاختيار بعض طلاب الجامعة للعمل فيها أثناء العطلة الصيفية، وتقدم للاختبار الذي عقدته اللجنة جمع غفير من الطلاب من كليات الجامعة، وقد سارعت في التقدم؛ إذ كنت حريصًا على العمل في كل صيف، وكانت الاختبارات متنوعة حسب التخصصات العلمية، طلب مني أن أكتب موضوعًا باللغتين العربية والإنجليزية عن انتقال الثقافة العربية إلى أوربا عن طريق الأندلس وغيرها، وكنت من المقبولين، منحت تذكرة سفر للسفر إلى المنطقة الشرقية حيث مقر شركة أرامكو. ولم تنقطع المراسلات بيني وبين أخي في هذا

الصيف، كما سعدت بزيارات متعددة زارني فيها أخي عبدالله رحمه الله إذ كان في ذلك الوقت منتدبًا إلى فرع شركة يعمل فيها، وشاركنا رحلة إلى الأحساء، أنا وأحمد العمود ومحمد القباني وغيرهما.

السيارة

وعدت إلى الرياض بما تحصل لي من رواتب العمل، وكانت ثلاثة آلاف ريال، إنها ثروة في تلك الأيام، دفعتها إلى أخي محمد طالبًا منه أن يشتري لي بها سيارة، وبعد أيام كانت السيارة الفلسكواجن الألمانية أمام الباب، لابد أنه زاد على ثلاثة الآلاف ما أمكنه من شراء تلك السيارة المستعملة، فرِحت بها كثيرًا، وفي عصر يوم خرجنا إلى البر القريب من الرياض لأتدرب على قيادتها، لم أكن تلقيت دروس قيادة سوى مرات قليلة مع أخي رشيد رحمه الله، درت بها في البرية وأخي يوجهني، ثم طلب مني العودة بها إلى الرياض حيث السيارات والزحام، كان جالسًا إلى يميني، وأنا أمام المقود وكلي أعصاب مستفزة، والسيارات من يميني، من أمامي ومن خلفي، ولا شك أن أخي يحس أضعاف ما أحس من الوجل والرهبة، كان الجو رهوًا حتى صك أذني بوق مفزع من خلفي، توهمت أني ارتكبت كارثة، فعطفت

مقود السيارة بعنف فارتطمت بسيارة إلى الجانب الأيمن في صدامها، نهرني أخي، قال: كن في طريقك ولا يستفزنك (راعي البوري) أي صاحب البوق، أما صاحب السيارة فالتفت إلينا وقال بأريحية: عسى ما عوّرناكم، وهكذا أكملت القيادة حتى وصلنا إلى البيت بسلام، ومهما يكن من الأمر عددت نفسي مؤهلًا لقيادة السيارة، ففي الغد انطلقت بها إلى الجامعة، وبعد انتهاء الدروس بعد الظهر عدت؛ ولكني اصطحبت زميلي عبدالله العجاجي إلى بيتهم في دوّار سلام، وهو بعيد عن بيت أخي في أم سليم (الشميسي)، وفي طريق العودة انطفأ المحرك؛ لأني لمّا أتعود استعمال التروس المناسبة للسرعات، إنها موازنة بين القدمين واختيار باليد للترس المناسب، وهي مسألة ليست سهلة في البداية، أفلحت أخيرًا في تشغيل المحرك، وواصلت طريقي إلى البيت، هناك رأيت القيامة قامت، كان تأخري مبعث هلع وخوف استنفر لأجله أخواي محمد وعبدالله رحمه الله فطفقا يجوبان شوارع الرياض وبخاصة المؤدية إلى الجامعة والقادمة منها بحثًا عني،

ولكن ما نالهما من التعب انتقض والخوف أفرخ بعد أن رأيا السيارة أمام البيت لمّا عادا، نعم نالني من العتب قدر ما نالهما من التعب؛ ولكن أحسبني حزت شيئًا من الإعجاب الخفي صرح به أخي محمد في وقت لاحق حين قال لأحدهم (لا، سوّاق). وهبتني هذه السيارة حرية التنقل في الرياض، وأمكن أن أسافر بها في عطل الأعياد ونصف السنة إلى الأهل في المذنب، رآها أبي فعجب منها ووصفها وصفًا ما سمعته من غيره، قال: هذه السيارة متلاقية أطرافه أي أطرافها، وقد صدق فسيارة الفولكسواجن (vw) الصغيرة محدبة القمرة فكأن منظرها الجانبي نصف دائرة.

الطالب المثالي

رأت الجامعة أن ترشح كل كلية طالبًا تراه الطالب المثالي ليدخل الطلاب في منافسة يختار بها الطالب المثالي في الجامعة، وكان فيما بلغني أنّه وقع الاختيار على طالبين ليرشح أحدهما لجائزة الطالب المثالي في الكلية، وكنت أحد الطالبين، وأما الآخر فمن قسم الجغرافيا، وكان من مرشحيه أستاذنا الدكتور أسعد عبده الذي لم أكن أعرفه معرفة كافية، وإن كنت أراه غاديًا رائحًا؛ لأني كنت في قسم اللغة العربية، فلم أتشرف بالتعلم عليه، وكنت حين انتظمت في كلية الآداب علمت من أخي محمد أن الدكتور أسعد عبده الذي هو أستاذ في الكلية هو أحد الشباب الذين تفضلوا بزيارة بيتنا وسلمني صورة جماعية لهم.

تفاجأت في يوم بالدكتور أسعد يستدعيني لمكتبه، فلعل أستاذنا أراد أن يوازن بيني وبين الطالب الذي يعرفه، جلست إليه في مكتبه لا أعلم ما سأواجه،

سألني بجملة من الأسئلة عن اهتماماتي، فأفضت في الحديث حتى ذكرت له كيف ساعدت أحد طلاب قسم الجغرافيا، وهو من بلدتنا على إنجاز بحثه، وذلك بتصوير المواقع والمعالم الجغرافية التي كان يُدير بحثه حولها، وانتهزت الفرصة لأذكره بزيارته بلدتنا وأعطيته الصورة الجماعية، ولست أنفي نيّة خفيّة لاستمالته إليّ، ولكني على يقين أنه وافق على اختياري اطمئنانًا إلى جدارتي بالترشيح.

وفي يوم الحفل الختامي الذي كان من فقراته إعلان اسم الطالب المثالي لكلية الآداب وقفت غير بعيد من الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري عميد الكلية، وهو يعلن اسمي ويقرأ مسوغات ترشيحي، وكان إلى جواري زميلنا في القسم الشاب النشيط الطلعة عبدالله آل الشيخ كان يحمل الجائزة بين يديه وابتسامة رائعة تزين ثغره، وأروع من ذلك كله أني تطلعت إلى الجمهور لأرى أخي وصاحبه خالد الدحيم جالسين في الصفوف الخلفية، كان فرحي بحضوره فوق فرحي بالجائزة لعلمي بمدى السرور الذي يحسه وأخوه الذي

يرعاه بأبوة رحيمة يطلع بكل فخر إلى إنجاز من إنجازاته، فلولا رعايته وأبوته ما كنت لأصل إلى شيء من ذلك، هذا الشعور بالفخر أحسسته وأنا أجلس كما جلس وأرى ابني يتلقى جائزة الطالب المثالي في كلية الصيدلة، في ذلك اليوم أحسست بما أحسه أخي الحبيب.

الرحيل إلى القاهرة

استأذن أخي في ذلك اليوم من عمله لينقلني بسيارته إلى المطار، أخذت حقيبتي، وضعتها في السيارة وركبت معه وكأني أساق إلى مجهول؛ فهي أول مرة أسافر خارج بلدي، إذ رحلتي للبحرين لقصرها وقربها لا تعد سفرًا، فاليوم أسافر إلى القاهرة التي أسمع عنها وأقرأ، ولكن ذلك يختلف كل الاختلاف عن الانتقال إليها ومفارقة بيت أخي وأبنائه أحبتي.

قال لي حين ركبت: هل أخذت كل ما تحتاج إليه؟ فقلت: نعم، ولست على ثقة مما أحتاج إليه، قال: أخذت رادو؟ قلت: لا، أخذت المسجل.

انطلق بالسيارة غير متجه إلى المطار بل إلى السوق إلى شارع الثميري العامر بمعارض الأجهزة السمعية، وقال اشتر واحدًا، نزلت واشتريت مذياعًا مناسبًا، لقد أهمه أن يطبق علي الملل وليس كالمذياع سمير.

وفي المطار أنهيت إجراءات السفر، وزن الحقيبة وتسلم بطاقة السفر، وحانت لحظة الوداع، وكان ابن خالي إبراهيم المحمد حاضرًا، كان السفر في تلك الأيام من المهمات وللمسافر حقّ الوداع، ودّعتهما ورأيت في عيني أخي مشاعر فرح برحلتي للكفاح وطلب العلم ممزوجة بإشفاق عليّ مما سأواجه في أرض المعزّ، فهو أعلم الناس بقلة خبرتي وضعف حيلتي، ولولا مدافعة ذلك ورغبته أن أعتمد على نفسي لكان صاحبني حتى يوصلني مأمني.

فنجان قهوة

كان من حسن حظي أن صادفت أحد أبناء بلدي وكان مسافرًا للدراسة في كلية الحقوق في جامعة القاهرة، وكان صالح خبيرًا بالقاهرة تردد عليها غير مرة، فتولى أمورًا مهمة كنت ربما وجدت عنتًا في إنجازها، حصلنا شقة نعيش فيها، وصحبني لمقابلة عميد الآداب السيد يعقوب بكر الذي كان يفترض أن يكون مشرفًا لي، وكان الذي هيأ لي معرفته د. رمضان عبدالتواب زميله منذ درسا في ألمانيا.

كانت القاهرة شديدة الازدحام، وتحس ذلك حين تريد الانتقال من جهة إلى أخرى، لم أكن أحتاج إلى مركبة للوصول إلى الجامعة؛ إذ كنت أمشي إليها من شقتنا في شارع الكشافة في الدقي، ولكن الانتقال إلى وسط القاهرة أو غيره من الأحياء لابد له من ركوب الحافلة أو سيارة أجرة، جربت ذلك كله؛ ولكنه لا يخلو من مشقة لم يتعودها من جرب شيئًا من حياة أخفض

من حياة القاهريين، وهنا قرّ عزمي على الحصول على سيارة، كتبت إلى أخي أطلب منه أن يرسل لي سيارة، لم أكن أعلم من قريب ولا من بعيد ما يتطلبه تحقيق هذا الأمر، إنها قلة الخبرة والجهل الأعمى. وكتب إلي بحنان وعقل أن من الأسهل والأفضل أن أشتري سيارة من القاهرة. ولكني ركبت رأسي وكررت سؤالي، بل بلغ الأمر مني أن قلت إن كنت لن تفعل سآتي لآخذها بنفسي، هكذا! قلت ذلك بخبث ولؤم لا حدود له؛ إذ كنت أعلم أنه سيفعل المستحيل كي لا أنقطع عن دراستي ولا أشغل نفسي بما يؤثر في سيرها.

كان للعاملة في شقتنا زميلات ربما تجمّعن عندها ساعة الانصراف إلى بيوتهن، ومن تلك العاملات واحدة قيل إنها بارعة في قراءة الفنجان، يشرب المرء فنجان قهوة تركية حتى لا يبقى سوى الثُفْل ثم يغطي فوهة الفنجان بالطبق الذي كان يحمل الفنجان ويحكم إطباقه ليقلب الفنجان فيسرب منه في الصحن ما يسرب ويبقى بطن الفنجان مصطبغة بعض جوانبه وقعره ببقية ثمالة القهوة، وهذا يتخذ أشكالًا مختلفة،

يختلف من فنجان إلى آخر وهذا الاختلاف هو ما أغرى بعض الناس بالتماس معانٍ لهذا الاختلاف فكانت قراءة الفنجان، وكنت مؤمنًا كل الإيمان بعبثية هذا الأمر إذ لا مجال لتصديقه عندي البتة، ولكني، علم الله، ربما أستمتع بسماع مثل هذه القراءة، وهكذا جاء يوم طلبت من أم محمد عاملة شقتنا أن تعدّ لي فنجان قهوة تركية، وشربتها وقلبت الفنجان كما يجب أن يفعل، ودفعت به إلى قارئة الفنجان، وراحت تتأمل بجد وإخلاص، ثم قالت لي: فيه حاجة كبيرة جائية في الطريق إليك. شكرتها وأنا أضحك في سرّي، ولولا الحياء لقهقهت لأن الأمر عندي كالدعابة.

أنسيت هذا الأمر حتى جاء يوم تلقيت مكالمة من غريب، كلمني رجل يبدو من صوته أنه كبير السن، قال لي إنه جاء من الحجاز، وأن معه لي رسالة، فاستعطيته[١] عنوانه، وكان في حي السيدة زينب، ثمّ مضيت إليه، فإذا به يدفع إلي بظرف ضخم فيه دفتر

(١) جاء في معجم الصحاح للجوهري "واستعطى وتعطى: سأل العَطاء".

الترييتكيت، وهو دفتر لبيانات السيارة المسافرة من بلد إلى بلد، ومعه رسالة من أخي الحبيب، شرح فيها ما يجب علي فعله، وبين لأول مرة معاناته الشديدة من شحن السيارة وإجراءاتها الجمركية، أدركت وقتها علة قوله وحكمة نصحه، وأحسست مغبة ما فعلت لجهلي.

مضيت إلى السويس برفقة شاب مصري أعرفه وتسلمنا السيارة من هناك، وقدتها راجعًا نحو القاهرة لأخلص بعض الإجراءات الضرورية لقيادتها في القاهرة.

الزواج

كان من عظم عناية أخي بي سعيه الدائم لتحقيق ما يسعدني، وطالما حمل عني كثيرًا من أعباء الحياة، وهو قدّر أني أمضيت شطرًا من عمري في كنف أسرة تحوطني بحبها وحنانها، وقد آن الأوان أن يزوج أخاه وإن شئت ابنه.

كتب إلي أخي بأمر الزواج واقتراحات لمن يمكن أن تكون شريكة لحياتي، حتى إنه بعث إليّ بصورة لفتاة مقترحة؛ ولكني لم أهد إلى ذلك. وفي يوم جاءت رسالته تحمل خبرًا مفاجئًا، وهو أن أحد أصدقائه الذي أعرفه حق المعرفة عرض عليه أن أتقدم لابنته.

كنت أعرفه وصادف أني رأيتها قبل خمس سنوات في الطائرة مع أخيها، ففرحت فرحًا عظيمًا بذلك وكتبت رسالة مطولة امتدح بها صنيعه وأشكره لسابغ كرمه، وكان هذا الصديق قد زارني في القاهرة وتناول معي الغداء المتواضع الذي صنعته لنا أم محمد

(العاملة)، وربما كان سألها عني، وربما قالت له ما تردده العاملات أن هذه الشقة جامع.

وكنت في تلك الآونة قد تعرفت على طالبة كويتية تدرس في كلية البنات جامعة عين شمس؛ ولكني صادفتها في قسم اللغة العربية في جامعة القاهرة، وقد كانت من طالبات هذا القسم في مرحلة الليسنس، جاءت ذلك اليوم لتأخذ معلومات لصديقتها في الكويت التي هي مسجلة في مجموعتنا التي تدرس السنة التمهيدية لمرحلة الماجستير.

منذ ذلك اليوم انعقدت بيننا صداقة وألفة أسعدتها جولات سياحية كانت فيها خير دليل لمعرفتها السابقة بالقاهرة، ولكن هذه الصداقة تحولت يومًا بعد يوم إلى حبّ، إذ استولت هذه الفتاة على قلبي وعقلي.

وشاء الله أن ينتقل الصديق إلى القاهرة هو وأسرته مكلفًا بعمل، فمضيت إليه، وأبلغته أن الله لم يرد أن تلتقي أسبابنا أنا وابنته، فقال لي بكرم لا حدود له: أنت طوال عمرك غال عندي وأنت اليوم أغلى. شكرته ومضيت أخطب تلك الفتاة إلى عمها في سفارة

الكويت. وكان علي بعد أيام أن أسافر إلى الرياض لأسعى في طلب الإذن بالزواج بغير سعودية، وهي إجراءات طويلة معقدة.

حين لقيت أخي وجرى بيننا حديث رأيت مدى الألم الذي تسببت به له، وحاول بكل رفق وحنان أن يثنيني عن عزمي؛ ولكني ركبت رأسي، ومضيت في إجراءات الإذن حتى أنهيتها ثم عدت إلى القاهرة.

كان لابد بعد ذلك من السفر إلى الكويت لعقد القران، وكاتبت أخي في ذلك، وما زال متكدرًا، فلم أجد جوابًا، فاتصلت هاتفيًّا وأبلغت من ردّ عليّ أنّي إن اضطررت سأسافر وحدي لذلك، ثم جاء هاتف أخي عبدالله رحمه الله فأبلغته بموعد سفري وطلبت إحضار مبلغ من المال ليكون مهرًا.

حضر أخَويّ إلى الكويت، وزرتهما في فندقهما، وذهبنا إلى السوق لنشتري حقيبة نسائية نجعل المهر فيها ونهديها للعروس.

على الرغم مما أسرّ به إلي أخي عبدالله من أن أخي محمدًا كان متمنعًا من الحضور لولا أنه أقنعه، على

الرغم من ذلك أظهر من الفرح والبشاشة ما يثلج الصدر ويسر الخاطر ويبهج النفس، وبعد عقد القران تناولا معنا وليمة القران وانصرفا راشدين.

كانت النية وتوصية أم براك والدة زوجتي وسمية بنت عبد المحسن المنصور أن نرجئ الزواج حتى تنتهي دراستنا؛ ولكنا لم ننفذ الوصية، وأسعدنا على ذلك عم وسمية في القاهرة عبداللطيف محمد المنصور الذي أقام حفلة العرس، دعيت لها عائلات أعضاء السفارة الكويتية، وكان من فقرات الحفلة أغان خليجية غناها جملة من مطربي الكويت والخليج منهم عبدالمحسن المهنا وعبدالرب إدريس.

سعدنا بعد مدة بزيارة لأخي محمد وزميله صديقه علي العمرو، فكانت مناسبة طيبة أن ندعوهم لتناول الإفطار في بيتنا، اجتهدت زوجتي وسمية أن تعد لهم مائدة لائقة على الرغم من حداثة معرفتها بالطبخ وشؤون المنزل، ولكنها نجحت نجاحًا باهرًا ظهر في الثناء والإعجاب الذي أبداه أخي وصاحبه، فقد كانا راضيين كل الرضا عن ذلك الفطور.

مناقشة الماجستير

حين عرفت زوجتي وسمية كانت قد سجلت رسالة الماجستير في كلية البنات بجامعة عين شمس كان عنوان الرسالة (صيغ الجموع في القرآن الكريم)، كان موضوعًا كبيرًا يقتضي جملة من المصادر والمراجع، عملت على تحديد معالمه وبناء خطته والشروع في جمع مادته وتصنيفها، وعرضت عملها على أستاذها المشرف د.عبدالعزيز مطر أحد تلميذي اللغوي المشهور إبراهيم أنيس، ثم رافقتها في العرضة الثانية حين عاد أستاذها من قطر في الصيف، ثم علمنا أنه أعير إلى جامعة قطر، وعينت الكلية لها الدكتور علي الحديدي مدة وجيزة أعير بعدها إلى جامعة الكويت، فعين لها الدكتور مصطفى الجويني الذي قابلناه مرة واحدة أعير بعدها إلى جامعة أم القرى، وعينت الكلية الدكتور أحمد كمال زكي الذي قابلناه في بيته لينظر في إنجازها، ولما أوشكت على إنهاء رسالتها أعير الدكتور إلى جامعة الملك سعود، وجاء وقت المناقشة في وسط

العام الدراسي حين كان الدكتور أحمد في الرياض، وكان لابد من حضوره لإجراء المناقشة، ولم نكن نعلم وسيلة نصل بها إليه؛ ولكن أخي محمد هبّ لنجدتنا فذهب إليه في الجامعة وقابله وأقنعه بلطفه وحكمته أن يقتنص من وقته ما يفي بإجراء المناقشة، وهيأ له أسباب السفر، وكانت المناقشة التي شرفنا بحضورها العلامة المحقق محمود محمد شاكر . وحصلت على درجة الماجستير بدرجة ممتاز. وكان لجهود أخي أبي سليمان وفضله كل التقدير والامتنان وإنما تلك جهود لا تنسى.

ناسور

أراد الله أن أصاب بناسور في منطقة حساسة، كانت الآلام شديدة لزمت بها الفراش، وكان من لطف الله وجود أخي محمد في القاهرة في تلك الأيام فكان ينوب عني في شراء ما يلزم البيت، وأتى بطبيب متخصص لفحصي، وصف لي علاجًا ظلْلت أتناوله مدة؛ ولكن الألم ما فتئ يزداد يومًا بعد يوم، وعلم أستاذي حجازي بأمري، فزارني في البيت، وهاله ما أعانية من ألم وما ظهر عليّ من سوء حال، أصر أن يصحبني إلى زميل له جراح في عيادته في شارع التحرير، وفحصني د. محمد البتنوني وقرر إجراء جراحة؛ إذ الأمر لا ينفع معه دواء، أجريت العملية، ولما أفقت سألت عن أخي، كان خارج الغرفة يكفكف دموعه فرحًا بنجاتي وإشفاقًا عليّ دخل وجلس على طرف السرير يجفف دموعه. وظل أخي يعتني بي وبشؤون بيتي حتى تماثلت للشفاء، وهذه من أيادي أخي التي لا تعدّ ولا تحصى.

الكتاب

نوقشت رسالتي للماجستير (الجملة الشرطية عند النحاة العرب) ونالتني بها الدرجة بامتياز، وكان لها صدى طيبٌ في قسم اللغة العربية في جامعة القاهرة عرفته من إشادة أستاذنا د. محمود مكي حين صادفته على باب القسم.

استولت على ذهني فكرة طباعة الرسالة في كتاب، لم استشر ولم أفكر في تبعات هذا الأمر، ولكني اليوم أشعر أنه لو عاد بي الزمن لأرجأت هذا، ولفثأت سورة الرغبة في الدخول في عالم التأليف، لقد أرهقت أخي وأحرجته بأمر لم يُستأذن به ولم يكن له به علم.

أنفقت سنة أو أكثر في طباعة الكتاب ومراجعة تجاربه؛ إذ كانت المطبعة التي عمدت إليها مطبعة الدجوي مطبعة عتيقة تعتمد على صف الحروف حرفًا حرفًا في قوالب، وكانت الصفحات ربما روجعت غير مرة لحدوث أخطاء بسبب التصحيح نفسه.

انتهت الطباعة والتجليد و تقاولت مع مكتب شحن تولى شحن الكتاب إلى الرياض.

وهناك في الرياض بدأت معاناة أخي الحبيب المعاناة التي لم أفكر بها ولم أعلم بها إلا بعد زمن فقد كنت جاهلًا بذلك.

لا أشك أبدًا في أن أخي سعِد سعادة بالغة بأن أخاه طبع أول كتاب له، لا أشك أن ذلك أشعره بالفخر، وبأن هذا ثمرة من ثمار رعايته وعنايته الفائقة بي.

بدأت أول مراحل المعاناة في طلب فسح للكتاب وليس ذلك في تلك الأيام بالأمر السهل وليس بالإجراء السريع، ثم جاءت مرحلة نقله من الجمارك وتخزينه؛ إذ لا مكان له في بيته، ولكنه لم يعدم وسيلة إذ كان يعلم أن أبناء خالنا لبيتهم سرداب (قبو) فاستأذنهم في استعماله لتخزين الكتاب، فأذنوا مشكورين مأجورين.

بدأ أخي بعد ذلك برحلة طويلة في سبيل تسويق الكتاب، سخر كل وجاهة أو علاقة طيبة في هذا السبيل، كان يخط بيده الكريمة خطابات العروض، عرض الكتاب على كثير من المؤسسات والمكتبات،

وتحمل في ذلك من العنت ما الله به عليم.

وليس بيدي أن أفيه ما يستحقه من الشكر، ولست أملك سوى أن أرفع إلى الله بأكف الضراعة أن يجعل له من الحسنات أضعافًا مضاعفة عن كل حرف من حروف ذلك الكتاب.

الزيارة

مضى وقت طويل على غيابي عن الرياض، فلم تكن الظروف مساعدة على ذلك حتى رزقنا بابننا أوس، علمت أن أخوي محمد وعبد الله قد بنيا فلتين حديثتين وأنهما انتقلا من البيوت الشعبية إليهما، كان ذلك أيام حدوث الطفرة الاقتصادية والنهضة العمرانية أيام اتساع رقعة العمران في الرياض.

كنا في الكويت في ذلك الوقت حين عزمنا على زيارة الرياض. أخذنا استعداداتنا من فحص للسيارة التي سننتقل بها ومن تجهيز ما نحمله من حاجاتنا، صاحبنا في تلك الرحلة والدا أم أوس أبو براك وأم براك رحمهما الله، كنت أقود السيارة، ولم أكن أعرف بيت أخي كل ما علمته أنه في حي السليمانية وأنه جهة مطار الرياض، المطار الذي كان خارج الرياض حين غادرتها، لحسن الحظ أن أبا براك قد زار الرياض قريبًا ويعرف بيت أخي فكان الاعتماد عليه في ذلك.

دخلنا الرياض من الجهة الشمالية من الطريق القادم من منطقة سدير، وبعد تردد قليل عرف أبو براك الطريق فوصلنا بالسلامة إلى البيت.

كان استقبالًا حافلًا، استقبلنا أخي وأسرته خير استقبال، جهزت لنا غرف في البيت أوينا إليها، أما في الغد فأقام أخي لنا وليمة ضخمة دعا لها طائفة كبيرة من الأصدقاء ومن الأقارب، كان أخي يحتفل بأخيه وعائلته وبالضيفين العزيزين من الكويت، وهبّ الأصدقاء والأقارب يتسابقون إلى حجز مواعيد لإكرامنا، وهي دعوات لا يمكن ردّها، فهي عادات أصيلة، ووجد أخي من حبه وكرمه وفخره بأخيه أنّ من حقه أن يدعى، وكان الداعون يرون أنهم هم المكرَّمون بقبول دعوتهم، كانت البيوت التي دخلناها كثيرة جدًّا.

لا شك عندي أن التكريم في المقام الأول هو لأخي، فهم إنما يكرمونني ومن معي لأننا ضيوف أبي سليمان، وحسبك به. كانت أيام سعادة وبهجة هيأها لنا أخي بكرمه وفضله، وصار بيته منزلنا بعد ذلك كلما زرنا الرياض.

وبعد أسبوعين من هذه الدعوات المتتابعة جدّ العزم على زيارة الأهل في القصيم، لم يرغب والدا أم أوس في مواصلة الرحلة معنا بل آثرا العودة إلى الكويت، أردت إعادتهما بسيارتهما؛ ولكن عمي أبا براك نصح أن تبقى معنا السيارة لحاجتنا إليها، واقترحنا أن يسافر بهما أحد شباب العائلة؛ ولكن أخي بكرمه السابغ أصرّ أن يصحبهما بسيارته، رأى أن من مكملات إكرامه لهما أن يبلغهما مكانهما، وأن يطمئن عليهم. ليس مثل أخي في بذله نفسَه لغيره.

كرتون الورق

أنهت أم أوس رسالة الدكتوراه، وحان أن نشرع في طباعتها على الآلة الكاتبة، وكنت أخبرت أخي بهذا في مكالمة كانت بيننا، وعلمت منه أنه قادم للقاهرة هو وزميله صديقه علي العمرو.

ذهبت إلى المطار لاستقبالهما، وحين خرجا تفاجأت أن معهما كرتونًا ضخمًا، لم يخف علي العمرو ما لقياه من عنت تحريك هذا الكرتون، وأما الكرتون فهو هدية جاء بها أخي، أراد أن يتحمل عنا بعض أعباء كتابة الرسالة، احتوى الكرتون ما يسمى أوراق الحرير وهي أوراق لينة تخرمها أحرف الآلة الكاتبة بصورتها ثم توضع الورقة بعد خرمها في آلة الحبر وهي أسطوانة مشبعة بالحبر فتحيط ورقة الحرير بالأسطوانة فلا ينفذ من الحبر سوى ما يقابل الأحرف المخرمة، ثم تمرر الأسطوانة على الأوراق البيض فتنطبع الأحرف عليها، وفي الكرتون عدد هائل من الورق الأبيض، أتاح

لنا هذا الكم من الورق أن نطبع الرسالة الضخمة وأن نصنع منها عددًا من النسخ أكثر من المقرر صنعه فأهدينا منها للأصدقاء والأقارب.

ليس غريبًا أن يفكر في أمرنا وأن يتعب نفسه في ذلك، هذا خلقه وحسن رعايته وتفكيره الدائم في غيره، فلا يجد فرصة للخير والبذل والعطاء إلا انتهزها من غير أن يطلب منه ذلك، ولكنه حب للخير جبل عليه وتعودت عليه نفسه.

حكايات الخير كثيرة جدًا سمعت حديثه عن بعضها حديثًا عابرًا، من ذلك أن أحد مدراء تعليم البنات في إحدى المحافظات كان في إجازة مستحقة، ولكن جد من حاجة العمل ما دعا بعض مديرات المدارس إلى الاتصال بالرئيس العام لتعليم البنات متذمرة من غياب مدير التعليم وأن هذا عطّل العمل، فاستشاط الرئيس غضبًا، وكلف أحد الموظفين الذهاب إلى تلك المحافظة ليكون مديرًا، وهذا الأمر سيتبعه لفت نظر للمدير الأصلي، يعرف أخي أبوسليمان ذلك بخبرته الإدارية فهو رئيس قسم المتابعة، فاتصل بالمدير

المجاز وسأله : كم بقي من إجازتك؟ قال يوم، فقل له أبو سليمان: اقطع إجازتك والتحق بعملك. فلما وصل الموظف المرسل المكلف وجد المدير في مكانه، فاتصل بأخي أبي سليمان متحيرًا ماذا يفعل؟ فقال له أنت منتدب الآن، وأنت قريب من أهلك فزرهم وعد راشدًا، ولما علم الرئيس بكل هذا أثنى على حكمة أخي وشكره لحسن تصرفه.

الأرض

ما بك؟ أراك مهمومًا؟ سألني أخي، كان ذلك في زيارة من زياراته للقاهرة، كنت أنا وهو في السيارة، ولا أعلم في ذلك الوقت إلى أين كنا متجهين؛ ولكني كنت صامتًا مهمومًا بعض الهمّ، ولم يفت ذلك على أخي المتميز برهافة حسّه وبشدة عنايته بمن حوله وبذكائه المتوقد، قلت: نعم أفكر في أمري حين أنهي دراستي وأعود أنا وأسرتي وليس لنا بيت يؤوينا. قال: الأمر سهل وسيكون خيرًا، لم يقل بيتي هو بيتك وما شابه ذلك؛ لأنه يعلم أن بيته هو بيتي، وأني متى جئت حللت عليه ضيفًا؛ ولكن عودتي بعد انتهاء الدراسة عودة دائمة، عودة استقرار، ولذلك أجاب بما يطمئن.

سافر أخي، ومضت الأيام، وغفلت عن الحديث الذي كان بيننا، ثم إنّا أن وزوجتي وسمية كنا في زيارة سياحية إلى الإسكندرية، وعلم بمقدمنا أحد زملاء أخي (محمد الجمل) فدعاني للغداء، وحاولت الاعتذار

تجنبًا للتكليف؛ ولكنه أقنعني في يسر حين أخبرني أن الغداء سيحضره صالح العبدالله الجمل رحمه الله، لبيت الدعوة بسرور بالغ فليس أحب إلي من لقيا هذا الرجل الشهم اللطيف ذا الخلق الرفيع.

حين التقينا وتبادلنا التحيات والاطمئنان على الأحوال وجرت الأحاديث في موضوعات شتى رأيت أبا عبد الله يبتسم وهو يزف إلي خبرًا سعيدًا، قال لي: إن أخاك أبا سليمان اشترى لك أرضًا في حي الملك فهد.

ما أجمل ما أسمع وما أجمل أن يحمل البشرى هذا الرجل النبيل الذي ما لقيته إلا لقيت الخير والبركة والصلاح.

لا أنسى ذلك اليوم في بيت أخي محمد في حي أم سليم حين كنت طالبًا في كلية الآداب، ولم تكن في ذلك اليوم أسرة أخي في البيت، زار أخي عدد من أصدقائه وزملائه فكلفني أخي إعداد القهوة العربية فشرعت في غلي البن وجهزت المبهرة وهي الدلة التي تملأ إلى منتصفها بالقهوة ثم يضاف إليها الهيل وتغلى ليختلط طعم الهيل في القهوة ثم تملأ الدلة بعد ذلك. لست

أدري كيف ساق الله هذا الرجل الحبيب أبا عبدالله إلى المطبخ، جاء إلي بكل حب ورفق يطمئن إلى إعدادي للقهوة وهو مشهور بين معارفه وأصدقائه بأنه طباخ ماهر، دنا مني وقال: هل جهزت الهيل؟ قلت نعم هذا هو، ومددت إليه بزجاجة مقفلة فيها مسحوق، فتح الغطاء وشم المسحوق وضحك ضحكة خفيفة، وقال: هذا بزار. وبحثنا عن الهيل، وبهّرنا القهوة، وستر الله، سيكون موقفًا محرجًا إن قدمتها بالتوابل لا الهيل. فجزى الله حبيبنا أبا عبدالله خير الجزاء.

لم يكتف أخي بشراء الأرض بل واصل عنايته بشأني، فبعد سنوات حين عدت إلى الرياض وأبديت رغبتي في بناء الأرض بحث عن وكيل جرب العمارة وله خبرة وطاقة على ذلك، وكان صديقه خالد الدحيم واستغرق بناء البيت أكثر من سنتين، وحين انتهى البناء امتنع خالد عن تسلم أجرة مقابل مجهوده في الإشراف المتواصل على البناء، أراد أن يكرم بذلك أخي ويعبر عن محبته له وتقديره، ومن لا يحب أبا سليمان ومن لا يقدره.

الخادمة

طلب مني أخي أن أستقدم له خادمة من مصر ففرحت بأنه كلفني أمرًا، وبحثت جهدي حتى وجدت واحدة وأجريت لها كل ما يلزم من تأشيرة الدخول وحجزت لها تذكرة الطيران، ورأيت أن أصحبها إلى الرياض، ولم أكن أعلم أن ذهابي ليس ضروريًّا حتى نبهني أخي وهو يستقبلنا، كان مشفقًا عليّ لم يرد لي المشقة ولا الانقطاع عن دراستي، وهذا من أهم الأمور التي تزعجه، فأمر دراستي ومواصلتها بالغ الأهمية عنده.

كنت محملًا بجملة من طلبات الزملاء في القاهرة لأشتريها، وسألت أخي أن أزور زميلي الدكتور محمد الزهراني وكان يسكن في ذلك الوقت في شقة في حيّ الوزارات، كان الوقت شتاءًا فلما دخلنا عليه في غرفة الاستقبال كان مكيف الهواء ينفث هواءًا حارًّا فشعرنا

بالدفء وأبلغته بحاجتي إلى معونته في شراء لوازم الزملاء فلست خبيرًا بأسواق الرياض فرحب بذلك، وبعد أن تناولنا القهوة والشاي استأذنا وخرجنا وكان الهواء باردًا، وبعد أن عدنا إلى بيت أخي ظهر أني أصبت بلفحة برد شديدة ضاق تنفسي وتكرر سعالي، وارتفعت درجة حرارتي وخارت قواي، فلما كان الغد صحبني أخي معه إلى عيادة ملحقة بالرئاسة العامة لتعليم البنات حيث يعمل وفحصني الطبيب وأعطاني دواءًا ظللت أتناوله ولكني ظللت طريح الفراش، وبعد مدة نقلني أخي عبد الله إلى الطبيب نفسه، وبين له أن حالي لم تتحسن وأعطاني أدوية، وبدأت تناولها ومضت أيام بلا نتيجة، فرأى أخي محمد أنه لا بد من مراجعة مستشفى كبير، وهكذا حملني مساء ذلك اليوم إلى مستشفى الملك عبدالعزيز الجامعي، ذهب بي إلى الطوارئ، وحين أقبل علي الطبيب وكشف الغطاء عني صدمته رائحتي العفنة التي سببتها الأدوية المتراكمة في جسمي والانقطاع مدة عن الاستحمام، فحصني الطبيب فحصًا جيدًا، ووصف لي أدوية مختلفة عن السابقة،

وكان من بينها دواء مضاد للحساسية، ورأيتني أتماثل للشفاء يومًا بعد يوم حتى إنني تمكنت من السفر إلى القصيم لزيارة والدي وأهلي هناك. عدت من القصيم واتصلت بزميلي د. محمد الزهراني الذي لم يأل جهدًا في المرور علي واصطحابي لشراء لوازم الزملاء، وبعد أيام يسيرة سافرت إلى القاهرة.

وللأسف الشديد أظهرت الخادمة بعد مدة عزوفًا عن العمل وطلبت ترحيلها، وكانت تحتج بأن الغرفة المخصصة لها غير خالية من أهل الأرض، ولكن تبين بعد التحقق أنها إحدى زوجتي رجل، فأجزعها أن تتغرب وتعمل تاركة زوجها لأخرى تنفرد به من دونها.

مناقشة رسالة الدكتوراه

لم يخل وقت المناقشة من المنغصات، فقبيل أيام من تحديدها علمت نبأ وفاة والدي رحمه الله، وكنت أنوي أن أحمل إليه رسالتي عن (الفعل في القرآن الكريم تعديته ولزومه) لأقول له هذا ما كان أخرني عنك، بكيت يوم قلت ذلك في بياني قبيل بدء المناقشين، كان مع أستاذي المشرف الدكتور يوسف خليف أستاذي العزيز د.محمود فهمي حجازي الذي تشرفت بأن علمني في السنة التمهيدية، ثمّ أشرف على رسالتي للماجستير (الجملة الشرطية عند النحاة العرب) وقدم لها لما أردت نشرها.

وأما المناقش الآخر فهو د.عبده الراجحي، وحدث في ذلك اليوم أن زميلي فهد عمر سنبل المكلف باستقباله في محطة القطار لم يوفق إلى لقائه، وفاجأني لمّا عاد قائلًا ما وجدته. ضاقت الدنيا بي واحترت في أمري فأمرته بالعودة مرة أخرى، ومضى وقت لا أطول منه ولا أشقّ حتى دخل الدكتور عبده الراجحي

والغضب قد أخذ منه كل مأخذ وراح يلومنا لومًا شديدًا ووصفنا بالإهمال وقلة الاكتراث بالآخرين، وأما أنا فالله أعلم ما حلّ بي من الخوف والحزن والأسى على ما حصل، لم يبق أحد إلا تشفع واعتذر، خاصة أستاذي يوسف ومحمود، والحمد لله أنه لم يجلس على منصة المناقشة إلا بعد أن فثئت سورته وخبت ثورته.

خفف من أمر تلك الملابسات أن أخوي محمدًا وعبدالله حضرا من المملكة ليشهدا هذه المناقشة وليفرحا بنتيجتها، وكان من الحضور المشرف غير أفراد أسرتي زميلين صديقين لأخي محمد: العليان علي العمرو وعلي العبيد.

سارت المناقشة ولله الحمد والمنة رخاءًا وعلى الرغم من ملحوظات المناقشين أبديا من الثناء ما يثلج الصدر ويسر الخاطر ويبهج النفس، وانتهت المناقشة وأعلمنا أخي عبدالله أنه أعد في فندق شرتون وليمة غداء للحضور، دعونا أعضاء لجنة المناقشة فاعتذر الدكتور خليف لأسباب صحية، وأما الدكتور عبده الراجحي فأراد اللحاق برحلته، وشرفنا أستاذي محمود.

المكتبة

بعد المناقشة تسلمت نسخًا من استمارة التخرج، وهي مفيدة في مجال التوظف فائدة الشهادة نفسها، أما الشهادة فتتأخر؛ لأنها تأخذ دورها في صف شهادات الجامعة التي يتولى خطاط خطها، ثم يوقع عليها صاحب الصلاحية، وكل ذلك يأخذ من الوقت ما الله به عليم.

لم يبق من المشاغل الملحة بعد ذلك سوى شحن الكتب، وهي كتب تراكمت خلال عشر السنوات التي قضيتها في مصر، ولم يكن تجميعها مدروسًا في كل الأحوال؛ إذ كانت أسعار الكتب ربما أغرت باقتنائها بغض الطرف عن مدى الحاجة إليها فكانت طائفة من هذه الكتب ذا غرض ثقافي عام، منها موسوعات علمية باللغة الإنجليزية، ومنها مكتبة طه حسين كاملة، وكان وراء شرائي مكتبة طه حسين أني سجلت موضوع رسالة الماجستير عن الجملة الشرطية عند طه حسين، ولكن

قسم اللغة العربية في الرياض لم يعجبه هذا الموضوع، نقل إلي أستاذي الدكتور محمد شكري عياد أنه قيل إن لطه حسين خصومات لا يراد أن ترثها، وحين زرت الرياض ذهبت إلى القسم للسلام على أساتذتي في القسم والكلية، ورأيت أستاذي الدكتور محمد عبدالرحمن الشامخ رحمه الله يستدعيني إليه فلما جلست إلى جواره عاتبني عتابًا شديدًا للحضور من غير إذن القسم فأبلغته أن الكلية معطلة في هذا الوقت، ولكنه انتقل إلى موضوع الرسالة وصارحني أن القسم غير موافق أبدًا على هذا الموضوع، ولا أدري بم أجبت؛ ولكني حين عدت إلى القاهرة مضيت إلى أستاذي د.محمود فهمي حجازي ونقلت إليه موقف القسم فأسف لذلك، ثم إني أعددت خطة أخرى عن (الجملة الشرطية عند النحاة العرب) وكان هذا بابًا من أبواب الخطة السابقة، وقبلت الخطة، ومن هذه الكتب الضخمة كتاب قصة الحضارة لول ديورانت وكان يطبع في القاهرة منجمًا، فكنت آخذ المجلد كلما صدر وأجلده ومن الطريف أنه جاء في نهاية العدد ٢٧ المجلد

السادس الجزء السادس وعنوانه (الإصلاح الديني) ص٢٦٢ رسالة موجهة للقارئ وهي "تشجع أيها القارئ! فلقد قاربنا النهاية"، واكتملت الأجزاء ولله الحمد، ومن الكتب التي اشتريتها منجمة معجم لسان العرب. وإن تكن بعض الكتب ثقافية فإن أكثر الكتب كانت تخصصية معاجم وكتب نحو وصرف وعلوم اللغة في الأصوات والدلالة، كان معرض القاهرة الدولي مناسبة للشراء فمنذ افتتاحه حتى آخر يوم أتجول في أجنحة المكتبات محاولًا استقصاء ما لديها من منشورات، وكل يوم أعود بحمل كبير من هذه الكتب، وكثير من هذه الكتب ربما حملته إلى محل التجليد لتجليده تجليدًا يحميه من التمزق، ولكتب اسمي على كعب الكتاب إثباتًا للتملك. وازدادت المكتبة بعد زواجي إذ ضمت كتب زوجتي وسمية إلى كتبي.

سمعت من زملائي عن اسم شخص موثوق به يتولى شحن الكتب، فهو يأتي إلى البيت ويخزنها في كراتين قوية، وشحنت الكتب وأرسلت إلى الرياض ولما تسلمت بوليصة الشحن من المتعهد أرسلتها على الفور

إلى أخي محمد الذي تولى أمر تخليصها وتسلمها.

هذا عبء إضافي ألقيته عليه من غير استشارته ولا أخذ النصيحة منه ولعلي لو فعلت لظفرت بما هو خير.

كعادته أخي ملتزم الالتزام كله بأمري، لم يناقشني في الإجراء الذي فعلته بل توجه إلى جامعة الإمام إلى مكتب عميد المكتبات. ولم يكن العميد هناك في ذلك اليوم، سأل عنه فقيل إنه غير موجود؛ ولكن أخي لم يشأ أن يعود من غير محاولة، فدخل إلى وكيل العميد وكان من محاسن الصدف أن يكون زميلًا صديقًا عرفته في القاهرة مع من عرفتهم من طلاب جامعة الإمام، فلما شرح له الأمر قال: إنا لا نفعل هذا عادة لأحد، ولكن ما دام الأمر للأخ إبراهيم فلا بأس، وهكذا زود أخي بخطاب رسمي من الجامعة يخوله أمر تسلم المكتبة.

وهكذا تسلمها ونقلها بشاحنة إلى بيته في السليمانية، وحين عدت إلى الرياض رأيها مرصوصة في البلكونة أمام مجلس الرجال، وحين استقر بي المقام في

الرياض نقلتها.

هكذا كان أخي يحمل عني أعباء الحياة ويظهر السعادة في ذلك لما جبل عليه من عطاء نال كل من حوله وغيرهم لا نعلمهم حتى يأتي لهم ذكر عارض غير مقصود في حكايات وذكريات تروى.

الفعل في القرآن الكريم
تعديته ولزومه

بعد فراغي من كتابة رسالتي جاء وقت إعدادها للمناقشة بطباعتها على الآلة الكاتبة، وألهمني الله أن أصور الآيات من المصحف الكريم مباشرة تفاديًا للأخطاء الطباعية، ولعلها الرسالة الأولى التي ينجز فيها مثل ذلك، ولاحظت غير مرة من استعار نسخة القسم، فلعله أراد الاطلاع على ذلك الإجراء، وحين نوقشْتُ في رسالتي (الفعل في القرآن الكريم تعديته ولزومه) بإشراف أ.د. يوسف خليف رحمه الله قضت لجنة المناقشة أن أفصل الباب الرابع، وكان عن (التعدي واللزوم في النحو العربي)، وكان هذا الباب من اقتراح أستاذي بل من إلزامه، وهكذا فعلت؛ ولكني كتبت تعليقًا فيه "موازنة بين الدرس النحوي للتعدية واللزوم ودرسه في القرآن الكريم".

في عام ١٩٨٦م أتيح لهذه الرسالة أن تنشر في

جامعة الكويت بتشجيع ومساعدة من زوجتي أم أوس التي كانت تعمل في قسم اللغة العربية في الجامعة ثم عميدة لكلية البنات، ولم يكن فرحي بنشر الكتاب بقدر فرحي بأن هيأ الله تعالى لي إهداء الكتاب إلى أخي العزيز محمد، وهكذا كتبت في الإهداء:

أخي محمد.

كنت أكثر الناس تطلعًا لإنجاز هذا العمل. وحينما استوى على سوقه بت أكثرهم به فرحًا. كنت لي طَوال عمرك أبًا وأخًا وصديقًا. فإليك أهدي هذا الكتاب، لا كفاءً لأياديك وإنما هو شكر قلب تعمره محبتك.

أما الباب المفصول من الرسالة فلم يضع؛ إذ جعلته في ثلاثة كتب نشرتها، وطبعت بمطبعة المدني عام ١٩٨٧م. وهي:

(قضايا التعدي واللزوم في الدرس النحوي)

(أبنية الأفعال دلالاتها وعلاقاتها)

(حروف الجر دلالاتها وعلاقاتها)

رعاية لا تنقطع

لم تنته رعاية أخي لي واهتمامه بشؤوني بعد عودتي من البعثة وانتظامي بعملي في الجامعة واستقراري مع أسرتي، لم تنته رعايته؛ بل كان يسارع إلى حمل أعباء الحياة عني، ويحوطني بعناية لا تنال أحدًا من أبنائه، حدثته عن بناء البيت وكان يعلم أنني لا أطيق الإشراف عليه، فحدث صديقه خالد الدحيم الذي تولى الإشراف حتى انتهى بناء البيت، ثم عرضته للإيجار؛ إذ هيأت لنا الجامعة مسكنًا بإيجار منخفض.

وحدثته عن رغبتي في قضاء الصيف أنا وأسرتي في مدينة أبها، فإذا به يحدث صديقًا له فيها ليهيئ لنا فلة ننعم بها في ذلك الصيف من غير أن نغرم هللة واحدة. وتكرر الأمر في السنة التي تلتها.

وبعد اجتياح الكويت وتشريد أهلها، وتوافد كثير من أقارب أم أوس إلينا هبّ إلى دعوتهم إلى بيته وإكرامهم خير إكرم.

وكان يوم رأيته يزورني، ولما استقر جالسًا مدّ يده إلى جيبه وأخرج صكًّا (شيك) ماليًّا بخمسين ألف ريال دفعه إليّ فنظرت إليه مستفهمًا، قال لي هذا من إسهام في أرض قديمة جعلت لك فيها أسهمًا من معاشك الذي أتسلمه من الجامعة وقت بعثتك. تقبلته منه شاكرًا له مقدِّرًا. كان ذلك من توفيق الله ومنه وكرمه فقد كنت في حاجة، ولم أعجب أن يهتم أخي في أمر زيادة دخلي فهو حريص على منفعتي ما وجد إلى ذلك سبيلًا.

وفاجأني بعد تقاعده بصكّ (شيك) آخر بضعف المبلغ السابق، فلما سألته به قال راجعت دفاتري ودققت حساباتها فوجدت هذا المبلغ لك، وسلمني الأوراق التي عليها البيانات.

ومن رأفته بي وحدبه أنه أخفى عنى مرض ابنته نادية رحمها الله بالمرض الخبيث حتى أذن الله بأن يصارحني بعد وفاتها ويفسر لي كتمانه رعاية لمشاعري.

ومن حسن رعايته لي دفع الحرج عني في بعض المواقف، كان من ذلك أنا كنا مجموعة نجتمع في بعض الليالي للاستمتاع بلعبة (البلوت) وهي لعبة شعبية

سعودية كانت واسعة الانتشار، وكان ربما شهدها من لا يشارك فيها، قال أحد هؤلاء موجهًا السؤال إليَّ: أليس لعب البلوت مضيعة للوقت؟ تحيرت وارتبكت واحمرّ وجهي خجلًا؛ ولكن أخي سارع إلى الجواب بذكائه وسرعة بديهته، هذا وقت مخصص للتسلية. فسرّي عنى وخرجت من ضيق إلى سعة.

وكم حدثني عن ردود مفحمة أسعدته بديهته فيها، وحدثته مرّة أننا أتينا في مجلس على نبأ زواج ابن خالي الذي كان ضعيف السمع، أصابه الصمم على كبر، فقال أحد الجالسين: عساها، أي زوجته، ما هي بصقهاء أي صمّاء؟ يعرّض بابن خالي، فقلت لا والحمد لله، قال أخي: لمَ لم تقل له: وليس بها صرع، وكانت أخت السائل تعاني من ذلك، أعلم ذلك؛ ولكن لم يخطر ببالي أن أقول ذلك؛ فليس لدي من الفطنة والبديهة ما لأخي حفظه الله.

وحين دعت ثلوثية الدكتور محمد المشوح إلى تكريمي في تاريخ ٩/ ٤ / ١٤٣٧هـ أخبرته بهذا، والتمست أن يرافقني في تلك الليلة لعلمي أن ما

سيسمعه وما سيشهده من أمر تكريم أخيه بل ابنه سيسره سرورًا بالغًا، ولأن صحبته لي شرف عظيم أباهي به واعتزّ؛ فكل ما وصلت إليه ورأى الناس أني أستحق به التكريم ما هو إلا نتاج غرسه وثمرة كفاحه وبفضل رعايته واهتمامه المتواصل، لم يتردد أخي الكريم في أمر مصاحبتي بل تحامل على نفسه في وقت كانت صحته لا تساعده كثيرًا على التنقل ولا الصبر على شهادة الحفلات، كانت مصاحبته لي سعادة فاقت سعادة التكريم.

وحين كتبت في صحيفة (اليوم) زاوية أسبوعية عنوانها (مساحة) احتفى بها، وحرص على قراءتها، وهو يبلغني بإعجابه، ويقرأ لي ثناء بعض القراء، يقرأ ذلك بفرح وفخر تحسه في صوته، بكرم لا حدود له، فهو كما قال أبو تمام:

هُوَ البحرُ مِن أيِّ النواحِي أَتَيْتَه

فَلُجَّتُهُ المَعْروفُ والجُودُ ساحِلُهْ

تكريم مستحق

على الرغم مما وصفته من خدمات جُلّى قدمها أخي لبلده المذنب لم يجد من أهلها بعد ترحّله إلى الرياض ما يستحقه من التكريم والاحتفاء، غير ما لمسته من بعض طلابه منهم الأستاذ عبدالله الشايع الذي انتهز فرصة زيارة أخي وحضوره إلى الحفل المدرسي، في تلك الليلة فاجأ الأستاذ عبدالله الشايع أخي بأن طلب منه أن يلقي على جمهور الحاضرين كلمة، لا أظن أخي علم بذلك من قبل، قال كلمة ضافية عن أحوال البلد وما ينبغي أن يكون، لست أذكر من تلك الكلمة شيئًا غير أن آية استشهد بها أخي ما زالت عالقة في ذهني، قالها وهو يعتذر عن كونه لم يعلم بأنه سيطلب للكلام، وأما الآية فكانت قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾[٤٢-الأنفال]. وأما التكريم بحق فهو تكريم طالبه الدكتور سليمان العقيلي، وهو تكريم باذخ كتبت عنه فقلت:

سليمان بن محمد ومحمد بن سليمان فارسان توافيا في ليلة من ليالي الوفاء النادر حين كانت الندوة

التي عقدت في محافظة المذنب وكان تكريم رواد التعليم في المحافظة، أما فارسا الندوة فهما طالب ومعلم، الطالب هو الأستاذ الدكتور سليمان بن محمد العقيلي والمعلم هو الأستاذ التربوي الإداري محمد بن سليمان الشمسان. أما سليمان الذي تولى رعاية الندوة بأريحية بالغة ليكرم أساتذة الجيل الأول فألقى محاضرة أشار فيها إلى شيء من خبر التعليم السابق قبل فتح المدارس الحكومية ثم فصّل القول في شأن التعليم النظامي مركزًا على تجربته في التعلم مثنيًا على معلمه (أبي سليمان) الذي كان له من بعد النظر ما سدّد به خطا طالبه، وكان من ثقة الطالب به ومحبته إياه ما جعله يسمع نصيحته فيواصل خطة دراسته وإن كان غيرها في ذلك الوقت أكثر جاذبية وأنفع لأحوال أهله. درست والزميل سليمان في المدرسة السعودية ثم المدرسة المتوسطة وكان قبلي في الدراسة وما زال قبلي بفضله، منذ عرفته رأيته كبيرًا فما تخيلته طفلًا أو مراهقًا، كان جميل الخلْق والخلُق، لا يلقاك إلا بابتسامة عذبة وصوت هادئ معبر مقنع. وأما أستاذ الأجيال الإداري الفذ أبوسليمان فحدثنا عن التعليم الذي كُلِّفه في سن مبكرة؛ إذ عيّن معلمًا بتخرجه من السنة

السادسة الابتدائية، وبعد سنيّات كان يدير باقتدار أكبر مدرسة في المذنب (المدرسة السعودية)[مدرسة الحسين بن علي حاليًّا]، كشف أخي عن الصعوبات الجمّة التي كانت صاحبت التعليم في تلك الفترة والإمكانات الفقيرة التي لم تثن المعلمين ولا المتعلمين، أخلص المعلمون لعملهم فكان هو الجهاد الذي نذروا أنفسهم له، وكان المتعلمون عاكفين على التعلم مدركين أنه هو مستقبلهم وأنه هو نافذتهم إلى حياة كريمة، أشار إلى المدرسة التي لم تكن سوى بيت قديم وإلى الفصل الذي كان حجرة خاوية إلا من لوح صغير مسند إلى الحائط وكرسي يستريح عليه المعلم حينًا، وأما الطلاب فيصطفون أمامه على التراب اصطفافهم للتشهد الأخير، وهي جِلسة لا أنساها. أشاد أبوسليمان بزملائه المعلمين وبخاصة أخويه رُشَيْد وعبدالله رحمهما الله، ولم ينس أن يذكر فضل المستخدمين الفراشين والحراس. أعجبتني اللغة العالية التي كتب بها أبوسليمان محاضرته الموجزة، وأعجبني اقتداره اللغوي في القراءة؛ إذ لم أره خرم حرفًا واحدًا أو عاند قاعدة نحوية، جاء حديثه سلسًا منقادًا أصغى إليه الناس بانتباه، واشرأبت الأعناق متطلعة إلى المزيد لولا

إحساسٌ بقِصر الوقت ورعايةٌ للحشد من كبار وصغار. كان المأمول أن تتاح الفرصة لتعليق من طلاب تلك المرحلة الذين عانوا معاناة معلميهم وذاقوا من مرارة تلك الفترة ما ذاقوا، وكان المأمول أن تتاح الفرصة لأجيال اليوم ليتبينوا حقيقة الأمس وواقع اليوم وشتان بينهما؛ ولكن ربّان الندوة وجّه حيزوم السفينة نحو مَراسٍ اجتهد في تخيرها؛ فكان ما ارتجله المعلقون من كلماتهم القصيرة معبرًا عن فيض محبتهم وعن صدق تجربتهم، وكشف أن كل واحد ينطوي على سيل من الذكريات التي لو كتبت لكانت سفرًا ضخمًا عن سَفَر في لجة الحياة الماضية. كان مساءُ الأربعاء الثاني والعشرون من جمادى الأخرة في العام الثاني والثلاثين بعد أربع مئة وألف من الهجرة موعدًا لوفاء سليمان لأساتذته خاصة وأساتذة التعليم المبكر بعامة. أبهجتني تلك الليلة بكلماتها ودروع التكريم فيها لولا أن تلك الدروع قصرت عن أخي أبي محمد الذي طُوي اسمه ونُسي ذكره؛ فما ناله من الدروع ما نال الأساتذة الأحياء منهم وغير الأحياء، لا أملك سوى الشكر لسليمان وقبلة على الجبين لأبي سليمان.

خاتمة

هي خاتمة وليست الخاتمة؛ لأني لو دونت كل ما أعرفه من تفاصيل وكل ما سمعته من أخبار وحكايات لجاء ذلك في كتاب ضخم؛ ولكني آثرت الوقوف على لمحات مهمة، في نظري، تبرز جوانب من شخصية أخي وتبين أثرها البالغ في حياتي؛ إذ كان لي بمثابة الأب فقد رعاني منذ صغري ثم عشت في بيته ثماني سنوات وامتدت أبوته إلى يومنا هذا، لقيت منه طوال عمري التشجيع والمؤازرة وإشعاري بفخره بإنجازي ومشاركتي الاحتفال به، وجدت من عنايته بي فوق ما يخص به أبناءه، لقد حمل عني أعباء الحياة، ورفع عن كاهلي كثيرًا من الأثقال، وعلى الرغم من أخطائي المتكررة وتخيراتي التي تعاند هواه لم أسمع منه ما أكره بل كان ينطوي على إحساسه مهما كان مؤلمًا.

ولست أملك الآن أن أشكره؛ إذ لا حدود لذلك الشكر، ولا كفاء لأياديه مهما فعلت، وليس لي إلا أن أرفع كفي ضراعة إلى الله أن يحفظ عليه صحته وأن يجزيه عني خير الجزاء.

أكتــب هذا الكتاب وأنــا على يقين أنّه إن ذكر شــيئًا فهو نقطة في بحر فضائله التي لا أملك لها حصرًا، ومهمــا تكــن الكتابــة تظــل قــاصرة عــن تصوير المشاعر والوفاء بما تكنه الصدور، وهي عاجزة عن وصف لمحات من الحياة تســتعصي على الوصف؛ لأنها إن لم تُعش، تشــاهد وتســمع؛ فإنه لا سبيل إلــى إدراكها. وإني لأرجو أن يجد قارئ هذا الكتاب ما يدخل السرور إلى نفسه وهو يطلع على جوانب من مواقف إنســانية لعلها أو ما شاكلها مرّ به أو علمه بعض العلم، ولعله يحس شيئًا من إحساسي الذي به كتبت، وله دونت، وإليه صبوت.

رقم الإيداع: ١٤٤٤/٤٩١٦
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٤-٤٤٧٠-٠